مجموعة قصصية

السيد
بلا مؤاخذة

الكاتب: شاهر جوهر

تدقيق لغوي: أحمد فؤاد

الإخراج الفني: ضياء فريد

تصميم غلاف: محمد مجاهد

لوحة الغلاف للفنان التشكيلي: علي جوهر

رقم الإيداع: ٢٠٢٠/١٤٣٠٨

الترقيم الدولي: ٦-٤٦-٦٦٨٩-٩٧٧-٩٧٨

كاريزما للنشر والتوزيع

٩ شارع مسجد المغفرة المتفرع من شارع العشرين بجوارمدارس حسام الدين الخاصة فيصل الجيزة.

موبايل : 01126026691 01061813345

01009823984

السيد
بلا مؤاخذة

مجموعة قصصية

شاهر جوهر

إهداء

إلى رفاقي في الجنوب..

أهدي هذا العمل.

حكم الله

نُدف الثلج الكبيرة تتساقط بغزارة حول مخفر الشرطة، ترسم طبقات رقيقة فوق سطح المخفر والبيوت والأشجار المحيطة. بعد لحظات تركن سيارة الشرطة في المكان، يترجَّل منها الشرطي "إيوان" وسيِّده "معروف"، قبل أن يُخرجا شابًّا مذلولًا من الباب الخلفي للسيارة. غرس "إيوان" بيده الثخينة نطاق سروال الشاب من الخلف وأمسكه بعزم، في حين سحبه "معروف" من ياقة قميصه بقرف، وقذفاه في زنزانته.

كان "عوشر" فلاحًا بسيطًا عشرينيًّا ناحلًا، ليس بالطويل ولا بالقصير، نمى الشعر بتعب على وجهه المرعب، وانسدلت من تحت منديله المتَّسخ الذي يغطي رأسه كعمامة، خصلة شعر طويلة متلبِّدة يبدو أنها لم تمشَّط منذ زمن بعيد، في حين دَكَّ نهايات سرواله المرقَّع في جزمته الطويلة التي فاخت منها رائحة زبل البقر الزَّنخة.

في الزنزانة سجين متأنق في منتصف العقد الثالث، يلف ساقًا فوق ساق ويحدِّث نفسه طوال الوقت، وبين فينة والأخرى يفرُّ واقفًا ليدور في زاوية الغرفة، وتحسبه يضرب أخماسًا بأسداس ويستغرق في تفكيرٍ عميق.

جلس عوشر بالقرب من الباب كليلًا، يلتفت حوله ويفكر بنفسه ببسور: "ما الذي فعلته بنفسي؟ يا لي من غبي! ليتني لم أسمع كلامها".

نظر إليه السجين وأشار إليه بيده:

ـ هيه أنت.

رمقه عوشر بنزق:

ـ هل تحدثني؟

قلَّب السجين ناظريه في المكان باستهجان:

ـ وهل يوجد مجرمان غيري وغيرك في هذا القصر المنيف؟

قال عوشر في نفسه: "يا إلهي! هل أصبحت مجرمًا؟! أنا الأبله الذي سمعت كلامها"، ثم وجه حديثه إلى السجين بنبرة غاضبة:

ـ هناك أصدقاؤك العفاريت، من تكلمهم منذ دخلت "قصرك" اللعين هذا.

ضحك السجين بطريقة تشبه إقلاع محرك زراعي، وهي طريقة يعرفها عوشر جيدًا:

ـ هئ، هئ، هئ! تعالَ، تعالَ واحكِ لي حكايتك.

مكث عوشر في مكانه دون أن يراعي دعوته. تململ الرجل، ثم اقترب منه ومدَّ يده ليصافحه:

ـ السلام عليكم، اسمي "أدهم"، من ريف العاصمة، وأعمل محاميًا، أسكن في هذه البلدة الخارجة عن سيطرة الحكومة منذ سنتين وثلاثة أشهر وأحد عشر يومًا، أي منذ قرر الإسلاميون قتال الحكومة. وأنت؟

استوى عوشر في جلسته، وصافحه بتثاقل:

ـ وأنا عوشر، من سكان هذه البلدة.

ـ ممم، يبدو أن جنايتك كبيرة حتى إنك لا تقوى على الكلام أو النهوض. أنا محامٍ يا هذا، وأعرف جيدًا قوانين هؤلاء الرجال، تكلم وسأساعدك. هل هي المرة الأولى التي تُسجَنُ فيها؟

ـ نعم.

ـ عرفت ذلك، نحن – الحقوقيين – لدينا معرفة ببواطن الرجال، حتى وإن لم يقولوا ذاك جهارة. وماذا فعلت؟ هل قتلت، انتهكت الأعراض، اعتديت على أحدهم؟ ممم، أم إنك اقتلعت عين أحدهم؟ إن كنت فعلت ذلك فالأمر سهل، قد يقتلعون عينك وتنتهي القصة.

ـ بل سرقت.

- أوه، هذا فعل سيئ يا رجل. شاب مثلك يسرق؟ المؤمن لا يسرق يا هذا. لا عليك، يحدث أن ينزغ الشيطان رأس المرء. على كلٍّ، حدثني بالتفصيل حتى أساعدك، هيا، لا تفرغ صبري أنا "أدهم جاد الله" أكبر محامٍ في العاصمة قبل الحرب بأعوام، كما أنِّي كاتب وأديبٌ، هل سرقت دكانًا؟ أم مجوهرات جارتك؟ هيا تكلم.

كوَّر عوشر جسده من البرد، ثم أخذ ينفث أنفاسه الدافئة في قَعْرِ راحتيه:

- لم أكن أريد فعل ذلك صدقني، زوجتي هي السبب.
- لا تحدثني عن النساء يا أخي، أنا ضعيف حيالهن، أعرف أنهن ماكرات في كل شيء، حتى إني لأعتقد جازمًا أن هذه الحرب هن من أشعلنها.

سكت أدهم قليلًا ثم أخذ يتأوه:

- آهٍ! ما أجمل النساء! أكمل يا رجل، أكمل. وما علاقة زوجتك بوجودك هنا؟
- هي طلبت مني أن أسرق كيسين من الحصى المتناثر على طرفي الشارع حتى أفترشه لبقرتنا في الزريبة؛ فهذا الشتاء قاسٍ وزريبتنا تكاد تغص بالطين.

حصر أدهم رأسه بكلتا راحتيه مدهوشًا:

- أوه! هل تقصد أنك سرقت من الأملاك العامة؟ يا إلهي!

- جمعت كيسين فقط من الحصى المتناثر على طرفي الشارع، فهو زائد عن حاجته، ولم يقل المجلس المحلي إن ذلك مال عام. كما أن رئيس المجلس قام ببناء بيته الجديد من المواد المخصصة لتعبيد الشارع، زوجته أخبرت زوجتي بذلك، والكل في القرية يعلم ذلك، لكن لا أحد يستطيع ذكر الأمر علنًا؛ لأن لدى عائلة رئيس المجلس فصيلًا عسكريًّا كبيرًا يحميه.

دمدم أدهم، ثم فرَّ واقفًا، وعاد يتجول في الزنزانة:

- اعذرني يا هذا، لا أستطيع مساعدتك، فهذا لا يبرر لك السرقة.

قال ذلك وعاد إلى مكانه في زاوية الزنزانة. زحف عوشر بالقرب من أدهم، ترفس ركبتاه قاع السجن:

- وهل جنايتي عويصة إلى هذا الحد؟ أنت محامٍ وتعرف في القانون.

عاد أدهم للتأوه من جديد:

- آه! ماذا أقول لك أيها الشاب المسكين؟! قانونهم غير قانوننا الذي درسناه في الجامعة.

سأل عوشر وفي لهجته تسخيف لكلامه:

- سأسجن؟ ليكن، سأدفع لهم ثمن الكيسين وتنتهي القضية.

ـ هئ، هئ! أنت تسرق المال العام، هل تعي ما أقول؟ وستحاكم وفق قانون ديني لا لعب فيه، أتعتقد أنك ما زلت محكومًا بقوانين الحزب الحاكم؟ سلطة الحزب انتهت في هذه القرية منذ سيطرة المعارضة عليها، أنت تعيش تحت حكم الله وسلطة الثورة، وهي سلطة لا مراء بها. أم إنك تعترض على سلطة الثورة؟

تبدلت حال عوشر، وتغير حبره وسبره:

ـ لا، أعوذ بالله.. لكن.. هل تقصد أنه من الممكن أن يتم قتلي؟ ألأجل كيسين من الحصى أُقتل؟ إنك تهذي يا هذا. لم أسمع أنهم قتلوا أحدًا لمثل هذا الفعل.

ـ هئ، هئ! لا تزال غِرًّا يا ولد، أعرف أحدهم قُطعتْ يده لأنه قطع شجرة، وقبل شهر قاموا بجلد شاب مئة جلدة، وقاموا بتغريمه مئة ألف ليرة.

ـ وماذا فعل حتى صنعوا به ذلك؟

ـ لا أدري. أتعتقد أن رأسي كمبيوتر لأحفظ كل شيء؟!

دخل عوشر في شرود عميق، حاول أدهم مواساته بطريقته:

ـ توكل على الله يا ولد. لا أعرف ما أقوله لك، أنت تنشل المال العام، وهذان الكيسان من مال المسلمين، انتهينا إذًا، قد صدر حكم الله فيك، بعد قليل سيستدعونك للتحقيق ولن يصدقوا روايتك، وستُسأل عن جماعتك: كم عددكم؟ لأي جهة عسكرية أو سياسية تنتمون؟

هل لديك ارتباط بالحكومة؟ وما هي الأماكن التي قمتم بسرقتها طوال هذه المدة؟

تأفف عوشر:

- جماعتي؟! بماذا تهذي يا رجل؟ أقول لك إني أخذت كيسين من الحصى الفائض عن حاجة الشارع لأفترش زريبتي، وتسألني عن جماعتي! هل أنت محامٍ أم محقق؟!

- هئ، هئ! اهدأ، سأحاول إرشادك، أخبرني، من هو صاحب الدعوة؟

تنهد عوشر الصعداء بتوتر:

- رئيس المجلس المحلي، لقد قال إن الشارع اختلَّ تقويمه بسببي.

سكت أدهم، ثم نام على بطنه وقد انفجر ضاحكًا:

- لن تنجو يا رجل، لن تنجو.

تركه عوشر وعاد إلى مكانه يتفكَّر في كلامه، محاولًا إقناع نفسه بتفنيد ما دار من حديث. في ذات الوقت عاد أدهم واستقام في جلوسه، ثم تربع في جلسته وقال بجديَّة:

- إن العرب إن عَفوا عن لصهم ضربوا بسيوفهم ناصيته، كنت أتمنى مساعدتك، فلتسامحني على ذلك، سأبقى أتذكرك ما حييت. يا للنساء! كم هن خسيسات!

ثم زمَّ شفتيه ورفع يديه دليل عجزه، ولم يقوَ على كبح فمه عن الضحك بهستيرية.

بعد لحظات فُتح باب الزنزانة، وتم استدعاء عوشر للتحقيق معه، بقي قرابة الساعة في التحقيق، وعندما عاد كانت قد جمدت الدماء في عروقه، جلس ولم يتفوه بحرف. وبينما أدهم مستلقٍ على ظهره وقد رفع ساقيه إلى الجدار، ودون أن يلتفت إليه، قال:

- ها، لم تصدقني. ما قلته لك لم يكن تلفيق كاتب ولا اختلاق شاعر، قلت لك أنا محامٍ.. محامٍ.

وكمن يحدِّث نفسه، طأطأ عوشر رأسه:

- لم يصدقوا أنها المرة الأولى التي سرقت بها، وقد سألوا إن كنا عصبة نمتهن اللصوصية والاحتيال، لكنهم لم يضربوني. وعندما سألتهم إن كنت سأُعدم، ضحكوا من أنوفهم، حتى إن رئيس المخفر كاد أن ينقلب على ظهره خلف كرسيه من شدة الضحك، وقال رفيقه ببرودة: "سنقتلك فقط؟! بل سيتم تقطيعك وربما حرقك".

قال عوشر ذلك ثم اندفع يبكي حتى ابتل شعر وجهه، التفت إليه أدهم بحدَّة:

- أتبكي مثل النساء وأنت رجل بدويٌّ؟! لقد صَعُبَتْ حالتك عليَّ؛ لذا سأساعدك، هناك مخرج وحيد كي تنجو.

ـ وما هو؟

اقترب منه أدهم وراح يوشوشه:

ـ بعد ثلاثة أيام سيتم نقلك إلى المحكمة الشرعية ليصدر بحقك الحكم، وفور خروجك من باب هذا المخفر سيكون بإمكانك الهرب؛ اركض، اركض ولا تلتفت خلفك.

ـ لكنهم سيطلقون النار عليَّ.

ـ لن يفعلوا، صدقني هذه فرصتك الوحيدة، وأنا أعي ما أقول، كما أنه ليس أمامك أي خيار آخر، وإلا فسينفَّذ فيك حكم الله.

قال ذلك وراح يضحك كعادته ويعوي كالذئاب.

في صباح اليوم الثالث فتح "إيوان" باب الزنزانة، وهو يرتدي بنطاله الصحراوي القصير، يترنح ويتثاءب من النعاس، ثم صاح:

ـ عوشر، جهز نفسك، سوف تخرج.

رد عوشر، والذي لم ينم ليلته تلك وهو يتفكر بكيفية الهرب:

ـ إلى أين؟

ـ إلى أين يا أبله؟! للإعدام، هيا أيها الأبله، لقد خنقتنا برائحة الزبل المنبعثة من لباسك.

نظر إليه أدهم:

ـ كما أوصيتك، اركض ولا تلتفت خلفك.

خرج عوشر، وما إن وصل باب المخفر حتى أطلق ساقيه للريح وركض حتى انقطعت أنفاسه، وخلفه يقف "إيوان" على باب المخفر واضعًا يديه في جيبيه ويصرخ ضاحكًا:

- توقف يا مجرم.

سمع عوشر صراخه، ودون أن يلتفت عَبَر الشارع وهو يتمتم: "صدر حكم الله.. صدر حكم الله". فجأة تصدمه سيارة من نوع تايغر مسرعة، ليسقط متضعضعًا مهشم الوجه على الأرض، هرع الجميع نحوه، أسرع "إيوان" وقد احتضنه بكلتا ذراعيه:

- لماذا هربت يا مجنون؟! كنا نريد إيصالك لبيتك وزوجتك.

تسايل الدم من أنف عوشر، وراح ينشج بلوعة:

- كنت.. كنت أريد أن أهرب من حكم الله.. لكن أين المفر؟ نحن – الجناة الضعفاء – لن نقدر على الهرب من حكمه.. ليتني لم أسمع كلامها وأسرق، كيف سألقى الله بهاتين اليدين الآثمتين؟!

كثر الهرج حوله، وارتفع صوت إيوان:

- أحضروا مسعفًا.. إسعاف.. أين الإسعاف؟

دمعت عينا إيوان، وتخضَّبت سترته بدماء عوشر الذي سرعان ما جفأت عيناه.

ذاهب إلى الجبهة

هذا الرجل ذو التقاسيم الفرعونية الهشة، صاحب الوجه الطويل والمسمى "خبيرًا"، خُلق وبدمه هذه الموهبة، أقصد موهبة التنقيب عن الذهب. جاء به صديقي "مهدي" قبل مدَّة، ويبدو أن الفوضى الدائرة في البلاد أثرت به فعلًا؛ إذ شلح شاربَيه وارتدى لحية طويلة كثَّة، كما أحاط خصره بمسدس تشيكي طويل.

وبالقرب من بيتي في الريف الجنوبي من الهضبة في الجولان، قطعة أرض بور قد ورثتها عن أبي، وبها بعض الإشارات والرموز المطلسمة من حقب زمنية سحيقة جدًّا.

جلسنا ثلاثتنا، ثم ابتدر مهدي حديثه بهدوء لم أعتد عليه، فأنا أعرف أنَّ تلك السكينة ليست من طباعه، وأنَّ الكل في قريتي يصفه بـ "راديو بشري متحرك"، لكنَّه اليوم على خلاف ذلك، هادئ حتى النهاية المرَّة، وعباراته تستند إلى لغة كنائسية رفيعة الروحانية، وبين اللحظة والأخرى كان يطبع على وجهه ابتسامة مطمئنة في الاسترسال مثل لوحة زيتية لـ "ماري مينيفييه".

إذ تحدث مطوَّلًا وبلباقة عن قدرات هذا الرجل في حل رموز وطلاسم الإشارات الحجرية، وعن الحالة السيئة التي وصلت إليها البلاد بعد الحرب، وفي نهاية الحديث أفصح عن نيته إخراج كنز مدفون في أرضي.

وعندما لاح التردد على وجهي لكلامه، زحف بقربي موسوسًا؛ لأنَّه لا يقدر إلَّا أن يعود لأصوله النزقة:

ـ هل أنت غبي؟ أقول لك أنت تنام على كنز وما زلت تتبرم بوجهك الناشف أمام هذا الخبير! سوف نصبح أثرياء يا أهبل..

قطع الخبير كلمات مهدي، ودأب يتحدث هو الآخر باتزان:

ـ البحث عن الذهب في الصخور هو إحدى مواهبي المتعددة، لربما إنك تعاملت مع خبراء كثر قبلي ولم تحصل على نتيجة؛ لذا أنا لا ألوم عدم ثقتك بي، فمن لا يعرفني يجهلني، لكن ما لا تعرفه أني أخذت هذه الموهبة عن أجدادي بالفطرة، وصقلتها بالجد والتعب، وجنيت من ذلك الأرباح.

قال ذلك، ثم تناوبا يجاهدان في إقناعي عبر الحديث المستفيض عن الأحلام؛ إذ تربَّعا حولي وأخذا يقنعانني مثل تجَّار العجول في قريتي، أحدهما يشد والثاني يُرخي رأفة بشعرة معاوية التي تربطهما بي.

وبفم فاغر يتسايل منه اللعاب أخذني كلامهما عن الأحلام بعيدًا، إلى بلاد لا تشبه هذه البلاد. وفي غمرة انشغالي بأحلامي تلك، وبحماسة منقطعة سألت:

ـ متى سنبدأ البحث؟

سمع الخبير ذلك فتهلل وجهه بالارتياح ثم أجاب:

ـ الليلة.

اتفقنا على العمل، وكنا ستة رجال، وهذا الخبير يتحدث من فم وسيع يطنُّ ولا يهدأ، مثل عش الدبابير، وقبل البدء أخذ ينط حولنا فوق الصخور مثل قرود العالم القديم. وفي وليجة نفسي سوَّل لي خطمه الطويل، ولحيته الصدئة المنزلقة بشعر كثيف حتى الرقبة، وحاجباه العريضان الناتئان فوق صدغين منتفخين كمومياء فرعونية من الأسرة الثامنة عشرة، أن أؤمن بمبادئ الانتخاب الطبيعي لدى داروين، وبأن أصل الإنسان سعدان.

فبعد كل هذا النط، استقر حاله فوق رَجم من الصخور القاسية. وقف، وبعينين سيئتي التكوين راح يمخر المكان قبل أن يعطي إشارة البدء:

ـ باشروا من هنا.

مشيرًا بإصبعه إلى مكان وقوفه، يبدو أنَّ هذا الرجل لم يرَ أنَّ أقل صخرة كانت تزن ضعفينا نحن الستة؛ لذا خيَّم التردد والقلق على وجوهنا. وعندما رأى فتور عزيمتنا، أخذ – على ما يبدو كعادة اتبعها – في الضغط على نقاط ضعفنا، مزوِّقًا أمامنا طريقًا مكللًا بالأحلام،

مذكِّرًا كل واحد منا بحلمه. وعليه سحبنا الرفوش والفؤوس وشرعنا ننقب. كل واحد منا كان ينقب عن حلمه؛ لذا كنَّا نحفر من قلوبنا في بلد لا يؤمن إلا بالكوابيس، ولم يؤمن يومًا بحلم.

أمضينا ليلتين نزفر التعب من خياشيمنا ومؤخراتنا. وفي يومنا الثالث، وعلى بُعد ثلاثة أمتار ويزيد – هو عمق الحفرة –، وقف خبيرنا كما في اليومين السالفين مكوِّرًا ساقيه ومرددًا فكاهاته التي لم تُضحك أحدًا، ينفث الدخان من أنفه ويصفِّر بنشاز لحنًا لأغنية قديمة (بلاد العرب أوطاني)، ثم يكمل حديثه الممل عن حبه الأفلاطوني لفتاة أحبها منذ عام ولم تحبه.

أمَّا أنا فيزيدني شوق أوروبا وفتاة أحببتها جهدًا فوق جهد؛ لعلِّي – إن وجدت ذاك الكنز – أستطيع أن أضع يدي بيدها وأتجه معها إلى مجتمع الوفرة الغربي، أو إلى أي مكان يعجُّ بالهدوء حيث يهدأ هذا القلب، ولا أستيقظ فيه على صوت مدفع أو أسمع أحدهم يتحدث في السياسة أو الحرب. ويبدو أنَّ رفاقي يشاركونني تلك الأحلام؛ إذ كنا نعدُّ كل حبة تراب تخرج، ونقيس كل مليمتر.

لكن فجأة يخرج أحدنا من الحفرة وقد تغبَّر رأسه من التراب، ثم يرفع يده عاليًا ممسكًا بعلبة صدئة من التونة الفارغة وشظية يبدو أنها من تركات الحرب العربية ـ الإسرائيلية الثالثة أو الرابعة، أو لربما لحربٍ نعيشها، ثم يصرخ بوجع:

ـ هذا هو الكنز.

في غمرة خيبتنا تلك، خيَّم الصمت على الجميع، وقفوا وقد لوَّحت سنو الحرب السبعة وأيام الحفر الثلاثة وجوههم المتعبة. أحدهم يلوِّح برفشه قاذفًا به إلى البعيد، وآخر يلقي بجثته على حجر ممسكًا بيده علبة التونة الصدئة ويرسم بها خطوطًا على التراب؛ لربما لأنه لا يريد لأحد منا أن يرى كم يقاسي جراء خيبته، وثالث يجلس بقربه، يضع يده على ركبته مواسيًا، ثم يصمت قليلًا، يقلِّب وجهه في السماء، يصيح بعصبية فوق أنف يرشح عرقًا وغِلًّا:

- أريد أن أتزوج وأنجب أولادًا مثل سائر البشر يا ألله، لا أريد أن أحمل السلاح، أريد أن أحيا كإنسان طبيعي، أريد أن أعمل أي عمل يا ربي.

ثم نكَّس رأسه كمن يواري عينيه العابرتين، فأثارت كلماته الجميع؛ لأنها كلمات الجميع، كلمات من تنغَّصت حياته وكره كل ما في هذه الحرب.

استقام على قوائمه، رمق الخبير بوجع وصاح بوجهه البارد:

- أين الكنز يا سيادة الخبير؟

وبخوف صفق الخبير يدًا بيد، ثم أجاب بقلق:

- يبدو أنِّي أخطأت أيها الرفاق.. علينا أن.. أن نحفر مجددًا.. هناك، نعم هناك..

ثم أومأ برأسه في حركة بطيئة، تنم عن حيرة، إلى تلة صغيرة بالقرب من حفرتنا. سمع منه الجميع ذلك، ثم التفوا حوله بغيض وجرَّروه إلى قلب الحفرة، فتأبَّط أحدهم عنقه تحت إبطه المتعرقة، وعلا بعد ذلك صراخه.

أستطيع أن أسمي هذا الزمن الضئيل من حياتي بالخيبة؛ إذ تسايلتُ بالقرب منهم كقطرة محكوم عليها بالسقوط، وقبل أن أنصرف لم أسمع منه سوى التوسلات المرددة:

- يا شباب، أنا أكبر منكم.. الوجه فيه ماء يا شباب.. قل كلمة يا مهدي أنت ورفيقك.. لمَ تضربونني؟! اتقوا الله يا شباب.. آي.. آه!

بعدها تداركتُ خيبتي، وحملتُ فوق كتفيَّ المهزومتين رأسي المتعب، ومضيت. خلفي يتبعني صوت مهدي متسائلًا عن وجهتي، عدت إليه، أمسكت راحة يده، وضعت بها الشظية، ومضيت. وطوال الطريق كنت أدندن مغنيًا: "سوريا يا حبيبتي".

الناصحون

كل ما في هذا اليوم محبط، مقيت ويثير الاكتئاب، فالجو قائظ والأرض على غير العادة من كل عام، قاسية، ناشفة، وكل شيء بها قد أينعه الذبول. ولو لم تكن قذائف الهاون تسقط كل حين على أطراف القرية، لقلت إني في صحراء لوط، لا في سوريا. لكن ما زاد حالي سوءًا في هذا اليوم ليس ذلك فقط، بل هم الناصحون العابرون.

يقال إن فلانًا تنفَّس في وجه زوجته، أي أورثها طباعه وملوحة دمه، وهنا في هذه القرية الصغيرة جنوب البلاد يبدو أن الحرب تنشقتها، فأورثت سكانها العصبية والكدر وشهوة طرح النصائح.

فعلى جانب الطريق الأيمن الواصل بين السوق والقرية، وهو مكان شبه خالٍ إلا من العابرين، انزلقت قطعة أرض صغيرة هي كل ما ورثته عن أجدادي، خاوية، جرداء ومقشَّرة لشدة الحرِّ. كانت مريم أول السالكين له في هذا اليوم، لحظة تواجدي هناك. صرخت باسمي من بعيد، فأشحت بوجهي متظاهرًا بعدم الانتباه لها؛ لأنِّي أعرف أنها ممن لا يترك نهايات سائبة في أي حديث.

لكنَّها انحدرت عن الطريق واقتربت أكثر، وبعصبية زعقت بوجهي تتساءل عن سبب تجاهلي لها، فهذا الشعب لا يحبذ التجاهل. لهذا – عزيزي القارئ – إن مررت يومًا في هذه البلاد ولم تقضِ الحرب على بقايانا، فإياك أن تتجاهل أحدًا؛ لأني أكاد أن أحلف مئة يمين أن ذلك هو السبب الوحيد لاشتعال هذه الحرب التي يبدو أنها لن تنطفي يومًا.

عبثًا كانت محاولاتي لتبرير موقفي؛ إذ لم يقنعها قولي أني كنت منشغلًا بفأسي. لكنني امتصصت غضبها عندما حوَّلتُ الحديث إليها وسألتها عن عائلتها، فكانت سيدة الحديث بلا منازع، ففي هذه الأيام العلقم العائلة هي أهم ما نملك؛ إذ تحدثت مطولًا عن حالتها في النزوح، وعن زوجها العاطل عن العمل، وعن حال ابنها بعد إغلاق المدارس جراء الحرب، كما تحدثت بوجع عن كيف خاب سعيهم خلال السنوات التي سبقت الحرب، وجعلتهم الحرب صفر اليدين.

هدأت كلماتها، تنفست قليلًا، ثم قامت بدس خصلة شعر انسدلت من غرَّة رأسها في حجابها، ثم سألت بفضول:

- ماذا تريد أن تصنع بهذه الحفرة؟ أتريد أن تزرع شيئًا؟
عرفت الآن لِمَ السنة ممحلة، ولِمَ تأخر نزول المطر هذا العام؛ لأنَّك قررت أن تصبح مزارعًا يا وجه النحس.
وماذا تريد أن تزرع؟

يعد سكان هذه القرية من أكثر المؤمنين بأن العمل عبادة، لكن لا أدري لِمَ بنصائحهم يُخرجون المرء عن دينه حين يرونه يزاول أحد أعماله.

أجبتها باقتضاب لمزاحها الثقيل بابتسامة زائفة:

- توتًا.
- توتًا! يبدو أن الحرب أثَّرت بك فعلًا، مذ عرفتك – منذ الصف الأول – وأنت غبي، انظر لأرضك، إنها منخفضة ورطبة في الصيف، إنها تصلح للرمان لا للتوت، نصيحة أختك مريم.

هي دقائق وقبل أن أزفر مللي من حديثها نط أمامي (عبد الرازق) بحركة مفاجئة وباهتة ليخيفني ممازحًا، فبانت قامته المربوعة كمسمار صدئ فدفعت معدتي للدوار، أمَّا زوجته وبالقرب منه فضحكت لحركته تلك ضحكًا خرج من أنفها، ولفرط ضحكها أمسكت خاصرتها بيدها؛ لذا لا أقدر إلَّا أن أجاريهما في الضحك؛ إذ هما مدرسان وزوجان شعبيتهما في قريتي صفر. جلسا بالقرب من غرستي، ثم غرسا أنفيهما بأذنيَّ ولم يُبقيا أحدًا في القرية إلَّا وتناولاه بسوء:

- هذا الديوث سرق ثلاثين سلَّة غذائية وحرمني من حصتي. بسيطة، سأفضحه على الفيسبوك. (قال عبد الرازق بغضب، وكأنه يكمل حديثًا بدأه مع زوجته قبل أن يصل إلينا)، وكأننا نعرف ما دار من حديث سابق ردت زوجته:

ـ لأنك ضعيف في نيل حقوقك. قلت لك دائمًا: "كن صداميًّا في التغيير". رئيس المجلس المحلي وأعضاؤه لا يلينون معك بسوى الصراخ، الطفل يبقى يبكي حتى تُطعمه أمه، وإن لم تصرخ فمن سيلبي طلباتك؟ ها، من سيلبي طلباته يا جماعة؟

ـ ألم تري ماذا فعلت؟ لقد صرخت. أقسم بعينيك يا حبيبتي إني صرخت ونحت يا حبيبتي، الكل كان ينظر إليَّ، حتى إن زوج زبيدة الخرف قال للجنة: "أبعدوا هذه النائحة عنا وسدوا فمها بسلة". أخ لو لم يمسكني أحد عناصر الفصيل الذي كان يحمي عملية توزيع المساعدات الغذائية، لكنت حرمته أولاده للأبد، لكن الله يحبه.

ـ آه يا حبيبي، أنا أعرف أن دمك الحار هو نقطة ضعفك.

ـ معك حق، دمي حار ولا أقبل الزائغة في الفعل. وهذه هي مشكلتي، لكن تعلمين أن يدي ليست ميزانًا، وإن ضربت أحدهم بلا حسبان فقد أقتله؛ لهذا لقد أفرغ الله عليَّ صبرًا وانسحبت بكرامتي اليوم، وإلا كنت قد أقمت مجزرة بأولاد الديوث...

ـ أعرف يا حبيبي.

ـ .. لو انجررت خلف غضبي ولم أكن حليمًا، لكانت تناقلتها وسائل الإعلام المغرضة، واستغلتها وتقاذفت أخبارها المعارضة والحكومة باتهام بعضهما البعض..

نظرت مريم إليهما ومطَّطت طرف فمها بسخرية وغمغمت:

ـ قِدرٌ ووجدت غطاءها.

جعل عبد الرازق نفسه لم يسمع ما قالت مريم، ولرغبته تغيير الحديث، وعندما لم يجد ما يشركني به، سألني عمَّا أنوي زراعته في هذه الحفرة.

وعندما أخبرته: "توت ورمان"، انتفض أمامي قائلًا:

ـ فليسامحك الله يا رجل، اسمع مني وازرع تينًا، إنه يحتمل العطش، والطلب عليه يزداد كل يوم.

ثم أخذ يشرح لي بعشوائية ضرورة مرونة الموارد الاقتصادية وقدرتها على التكيف، بالإضافة إلى قوانين السوق وآلياته في العرض والطلب. ولو لم أكن أعرفه وأيقن أنه يُمضي وقته في صف الكلام والاعتياش على الإعانات الأممية، لقلت إنَّه أحد مُنظري الليبرالية الاقتصادية.

أمَّا زوجته فكان لها رأي آخر؛ وقفت ورددت مقاطعة بعد أن أسندت خاصرتها بيدها:

ـ تينًا؟! أيزرعه للدبابير والغربان؟! ازرع جوزًا، سعر الكيلو لا يقل عن ألفي ليرة، صدقني ستكسب، لا تستمع إلى كلام زوجي الحبيب، إنه لا يميز بين الطيط والعيصلان، فكيف له أن يعرف الأنسب لزراعة هذه الأرض؟!

- أنا لا أميز بين الطيط والعيصلان؟! أنا.. لا أميز.. بين.. الطيط.. والعيصلان؟! (رد عبد الرازق على زوجته مصدومًا).

ردت مريم بمزاح على عصبية عبد الرازق:

- ليس ذلك فقط، بل ولا تعرف من تزوج خالتك.

ضحكت مريم هي وزوجته إلى أن هدر دوجان بالقرب منهم بكل هدوء، وكأنَّ جدالنا وجلستنا تلك كان ينقصها هذا العجوز، فهو رجل سبعيني هرم، لكنَّه ما زال يحتفظ بقوته وسلاطة لسانه، قدم إلينا فجأة وقد كوَّر يديه خلف ظهر منحنٍ. جلس وأخذ يحدثنا بكسل وبتفاصيل مملة، كيف ذهب إلى بيته في هضبة الجولان، وزرع مئة غرسة زيتون وسقاها في غضون نصف ساعة، ورجع دون أن يلاحظه مسلحو تلك المنطقة أو يقتلوه. كل واحد منَّا يعلم في سرِّه أنَّ هذا العجوز يبالغ في ثرثرته، لكنَّنا أضعف من ألَّا ننبهر بإنجازاته، وإلَّا كنَّا وجبة سهلة لفمه الذي لا يستسيغ سوى طعم الشتيمة.

- مريم: يا ألله يا عم! ليت كل الرجال بشجاعتك.
- زوجة عبد الرازق: بالفعل، ليت زوجي بنصف شجاعتك.
- عبد الرازق: لو امتلكت نصف شجاعته، لكنت اتخذت زوجة ثانية يا حبيبتي.

قطع دوجان إطراءهم، ثم أكمل يومياته خلال ساعة ويزيد من الحديث المتواصل. وحين شعر أنه أفرغ كل ما لديه من يوميات، أدار رأسه إليَّ وسألني:

ـ لِمَ هذا الفأس يا بني؟ أتريد أن تزرع شيئًا؟

أجبت بتململ:

ـ إن شاء الله.

ـ ولِمَ لا يشاء الله؟! فالله بارك بالزراعة.

ـ أقصد إن لم يقصف الله عمري فسأزرع.

ـ ولِمَ يقصف عمرك الله؟! فأنا أعرف أنَّك ممن لم يحملوا السلاح.

ـ أقصد إن لم يصبني احتشاء في القلب أو يتخثر دمي أو لم تسقط على رأسي قذيفة هاون طائشة فجأة، فسأزرع.

ـ طيب، وإن لم يصبك احتشاء في القلب أو يتخثر دمك أو لم تسقط على رأسك هذا قذيفة هاون طائشة فجأة، فماذا تريد أن تزرع؟

قلت بحنق:

ـ توتًا ورمانًا وتينًا وجوزًا.

نظر إليَّ، تهدَّل وجهه وقد زمَّ شفتيه باستغراب، ثم صاح:

ـ اسمعوا أيها الناس! اسمعوا أيها الكفار! اسمعي يا أمة الله! يا ولد، هل خبَّلتك مصائب الحرب؟ هل أنت أدرى من ربنا؟! جاوبني.

ـ أعوذ بالله.

ـ إذًا أطبق فمك وازرع زيتونًا؛ لأنَّ ربنا أقسم بالزيتون.

ثم أخذ يعدد لنا جميعًا فوائد الزيتون بطريقة مملة. وبحركة مفاجئة حدث جدال حاد بين الأطراف الأربعة، وكل طرف تحوَّل إلى مُدافع صلب عن نظريته. أمام ذلك، أسندتُ حنكي بجمع كفي ورحت أنظر إلى أشداقهم المتطاير منها التّفْل، إلى أن جاءت أمي تترنح من بعيد شامخة كشجرة سنديان، وما إن تربَّعت بيننا وأرخت ظلها الوارف حتى سألت:

- لِمَ لم تزرع شجيرات المشمش حتى الآن؟

اعتصمت بالصمت، ثم زحفت بالقرب منهم وردمت حفرتي بيديَّ، أسدلت فأسي على كتفي ومضيت مبتعدًا.

اتسعت فرجتا عينيها ثم سألت أمي باستغراب:

- ما به؟ هل أغضبتموه بأمر؟

سأل دوجان مستغربًا مثل حالها:

- هل أغضبتموه يا جماعة قبل أن آتي؟

فهزَّ الحاضرون رؤوسهم دليل النفي، ثم أكمل دوجان:

- كل ما في الأمر أنَّنا أسدينا إليه بعض النصائح.

انبسطت عينا أمي باستطالة صغيرة تنم عن اعتذار، ثم قالت بأدب:

- آسفة يا جماعة، أنا أعرف ابني، فهو لا يحب النصائح.

مذكرات نباتي

اسمي ليس مهمًّا، بل الأفضل أن أقول إنه لم يكن مهمًّا يومًا، تمامًا كانعدام أهميتي ومذلتي في هذا البيت وهذا الحي، فأنا ابن حي مليء بالعنف في وطن كبير تشظى من العنف، أعزب، لا أدخن، وأحب الملوخية، وعمر الخامسة والعشرين في هذا البلد هو عمر مناسب لكل شيء، للدراسة، للعمل، للهجرة غير الشرعية، لتعاطي الممنوعات، وللانخراط في إحدى المجموعات المتمردة التي غصَّت بها البلاد، والأهم أنه عمر ملائم لاحتلال قلب رحاب المُدرسة الصهباء الجميلة، من تزاول معي نفس المهنة، لكن قصر قامتي وضآلة جثتي في هذه القرية وفي هذا البيت بالتحديد يغريان الآخرين لإشعاري بالدونية، ما يدفع لتكون رقبتي غرفة استراحة للأيادي الثخينة.

فأخي يشاطرني المهنة، مدرس، وكل يوم يتناوب على ارتداء بعض ثيابي. واليوم، في هذا الصباح الريفي البارد، وقبل أن يقطع تأملي أمام المرآة بحشر جثته مكاني ليتفرس طوله الفارع، جعل

كعادته يرمقني بين اللحظة والأخرى بمؤخرة عينه وكأنه يغيظني في سره قائلًا:

- يا قصير.. يا قصير.

ثم بلفتة يمضي إلى دوامه حتى أحاول اللحاق به متسائلًا خلفه بلباقة:

- يا حلو.. يا أسمر.

وبوجهه العابس والمغلق على الدوام يلتفت إليَّ بصعوبة:

- نعم؟
- يحدث أن يخطئ المرء في هذا البيت، عادي، لكن يبدو أنك تلبس سترتي وجوربيَّ.
- عسكريّة دبّر راسك.

كرد اعتبار أرفع صوتي مبدِّلًا مجرى حديثي تمامًا معه؛ لأني اعتدت امتهان حقوقي من قبل الغير:

- حلمت البارحة حلمًا.. أتسمعني؟ أعرف أنك ممن يجيدون التأويل.. يا حلو.. أتسمعني؟

لكن كلماتي أبطأ من أن تبلغ خطواته المهطعة في عدوها إلى عمله. أدس يديَّ في جيبيَّ عائدًا إلى أمي، هي الأخرى في المطبخ تدندن أغنية محليَّة مملة، تضع الفطور، تتربع ببطء مثل جدارية لمورغان ويسلنغ أو جيفري لارسون، ثم تنبري مكملة حديث البارحة، حيث البارحة أيضًا أكملت حديث أول البارحة،

وأول البارحة أكملت حديث اليوم الذي قبله، حديثها البيزنطي اللا منتهي:

ـ ها.. هل فكرت جيدًا بحفيظة؟

هنا ما عليَّ سوى أن ألوذ بالصمت؛ لأنها تعي أن سكوتي يعني شدة كرهي لهذه الآلة التي تسمى حفيظة، وعدم رغبتي في أن تكون زوجة. مجرد ذكر اسمها هو مناخ ملائم ليخلق في رأسي الصداع. لكن بما أني لا أريد أن يبلغ صياحنا للسمان في آخر الحارة في هذا الصباح المبارك، قلت بأدب:

ـ إنه زواج يا أمي الحبيبة، ليس حذاءً نشتريه فنرده لصاحبه في حال كان ضيِّقًا.

ـ إنها تلائم مقاسك، صدقني.

ـ إنه زواج، ليس كيلو بطاطا نشتريه بلا تفكير معمَّق، حتى كيلو البطاطا حين تشترينه أنتِ من الشيخ الخضرجي تجادلينه في السعر، وتتفحصين جودته لنصف ساعة ليصل به حد الإلحاد.

أكملتْ حديثها معي بفتنة ميلودية صافية ولغة هارمونية عذبة على غير العادة:

ـ يا ولد، وجهها لحيم.

ـ لا يعنيني ذلك، فأنا نباتي.

ـ أقول لك شعرها أملس وجسمها ليِّن وجميل.

- خصرها معجون مثل خبز الفلاحين.
- يا ولد..
- لا أريدها يعني لا أريدها.

ولأني أعلم أن أمي من جيل المدافعين عن التقاليد العائلية والطبقية في هذه القرية، لم تدهشني بردها؛ لأني على يقين من أن أجوبتي ستثير عصبيتها تلك، إذ علا صوتها بغيضًا، تورمت أوداجها وهي تضغط على مخارج الحروف في توبيخي:

- ولِمَ لا تريدها يا مؤخرة الدجاجة؟ هل ذلك من أجل رحاب، تلك النحيفة ذات الوجه البلاستيكي الممكيج؟ كل القرية تعرف أن والدها يريد تزويجها لابن عمها، وهي تحبه؛ إذ يكفي أنه طويل ووسيم وليس قصيرًا.

أعلم أن رأسي المدور فوق كتفين هزيلتين هما سمة تمتاز بها الأبراج النارية وفق ما يقوله عالم الفلك والمنجم نوستراداموس، لكن الذي يجهله نوستراداموس ولا تعلمه أمي أن أضعف الكلمات نعومة قد تؤذيني أنا الحساس والحالم في هذا البيت. لكن منذ أن حمل الجميع السلاح في البلاد، استحالت رومانسيتي إلى عصبية، شأني بذلك شأن الجميع.

مع كل ذاك الإحباط في هذا البيت، أعود معتصمًا بالصمت، أمي هي الأخرى تسكت هنيهة ثم ترتسم على محياها المليح جديَّة زائفة:

ـ لا غداء لليوم، أنا ذاهبة زيارة، دبِّر رأسك.

يبدو أني فعلًا أعيش في ثكنة عسكرية، لكن قبل أن أنصرف إلى عملي لا مانع من محاولة أخيرة، أقترب منها أكثر وأقول بصوتٍ وجل:

ـ حلمت البارحة حلمًا.

مر فراغ شفيف بعد حديثي معها، وكأنها لم تسمع كلماتي. قلت في نفسي لا أريد أن أظلمها، لعلها لم تسمع ما قلت، فأنا مؤمن أن الجنة تحت أقدام الأمهات، لكن لا أدري أي جحيم ساق أبي إليها؛ لهذا عاودت الحديث معها من زاوية أخرى:

ـ هل تعلمين يا حلوة أني البارحة – خيرًا بالصلاة على النبي – حلمت حلمًا؟

هي – وربما من منطق كومنتي سلطوي – غرزت عينيها في وجهي، أحمَضت أمومتها وبفلسفة أوتوقراطية محض ردت:

ـ ألم تتأخر على دوامك؟

لا أدري أي معرفة جعلتها تمارس سلطتها عليَّ هذا الصباح بالذات؛ لهذا أرتدي حذائي وأودع وجهي الرائع على المرآة متجهًا إلى المدرسة.

مديري في المدرسة رجل براغماتي، ثخين وتغصُّ أردافه باللحم، محترم ويكره فكرة أن المدير الناجح هو من يُطاع دون إصدار الأوامر؛ لهذا أجده لا يبخل بأوامره عليَّ، ربما لأني أقصر مدرس في شركته، لكنه لا يقرأ لفكتور هوغو لأنه لا يقدِّر أن عظمة الشعوب لا يحددها عدد أفرادها، وعظمة الفرد لا تصنعها قامته. وأكثر شيء لا يعيه حقًّا هو أن أثقل الحديث هو الكلام المعاد، فكل صباح يردد الحديث ذاته؛ إذ يحدثني ببضع كلمات يجزئها بالحديث مناصفة بين مشاكل الطلاب وبشكل مقتضب وعجول عن الحال الذي آلت إليه البلاد بعد الحرب.

دنوت بكرسيي منه أكثر، وقاطعته مهتمًّا:

- أتعرف يا مديري المثقف؟ البارحة حلمت حلمًا، لم أخبر أحدًا به، لكنك الوحيد الذي سأبوح به لك.
- خير بالصلاة على النبي؟
- استيقظت الساعة الثالثة فجرًا، وقد أيقظني ذاك الحلم.. كان رهيبًا.. فظيعًا.. ثم.. لِمَ تنظر إلى الساعة يا مديري المحترم؟ ألا تعرف أن العين مِغْرَفة الكلام؟
- إنها تدق الثامنة؛ لنوزع الطلاب على صفوفهم، ثم تكمل حلمك.

الطلاب في الباحة بكافة الأشكال الهندسية، الطويلة والمربعة والمدورة وبعض الوجوه المعوجَّة والمخرشة والتي لا أجد شكلًا هندسيًّا يلائمها، والكل ينظر إليَّ ويبتسم، إنهم يحبونني، أعرف

ذلك لكنني رجل يحفظ النصائح جيدًا، خصوصًا نصائح مديري تلك التي يكررها في الاجتماع الأسبوعي، والتي تقول: "لا تعطوا الطلاب كامل حريتهم؛ ما زالوا صغارًا على الديمقراطية"؛ لهذا لا أرد ابتساماتهم، ليس لأني لا أريد أن أورثهم "بلاهة ابتسامتي" كما تقول أمي.

في هذه الأثناء يزحف المدرسون وراء بعضهم البعض كسالى ومتثاقلين إلى صفوفهم وبلا أي وجهة تمامًا كأغنام بانورج، بعضهم يدحل بطنه أمامه مغتاظًا، وآخر ارتسمت على وجهه خطوط ناشفة من الدمع جراء ركوبه دراجته النارية في هذا الصباح البارد، وثالث يهرش بطنه ثم يدخن آخر سيجارة نكد وهو يردد عبارته المكررة كل صباح: "ليقطع الله عمر هذه الحرب".

لكن وحدهن المدرسات – مثل سائر كل النساء في هذه البلاد – لم تلوثهن هذه الحرب، يتمايلن إلى الصفوف بكامل الأناقة والرشاقة. في حين لا يقوى قلبي إلا وأنا أوزِّع ابتساماتي لهن هنا وهناك.

وما إن تأتي رحاب حتى ينشرح وجهي لجميلة الهندام تلك، لكنها تمر دون أن تُلقي عليَّ التحية حتى، لكنني أبرر تجاهلها لي؛ فنحن مجتمع محافظ يلوك سمعة الفتاة كالعلكة، ثم يرمي بها تحت قدميه.

بعيدًا عنها وعن المدير يسحبني ذاك المدرس النكد. بالمناسبة، اسمه سيَّار، سُمي على اسم جده سيَّار، وسُمي جده سيَّار على اسم أبيه سيَّار، وسُمي والد جده سيَّار لأن والده اسمه سيَّار، وهي متوالية وراثية تحدث بتكرار في هذه البلدة، وتُعيد نفسها في تتابعات عشوائية غير مفهومة، قد يعجز آليك جيفريز نفسه عن فهمها.

يسحب على سيجارته بملل، ثم يبدأ شكواه بهدوء:

ـ أجدك رجل فَهم، ولديك نظرة مقبولة للحياة، كما أنك إنسان محترم، أنت تعجبني، وأنت تعرف ذلك.

ـ أصبت، أنا كل ما قلت.

ـ أنا أقرأ قصصك السخيفة على الموقع الإلكتروني، ماذا كان اسمه؟ لا داعي له. المهم عندي سؤال لم يُجبني عنه أحد، لا في هذه المدرسة المقيتة، ولا في الجريدة المملة، ولا في التلفاز الكئيب، ولا حتى في هذه الوجوه المتعبة للمتمردين: برأيك المتواضع هل سيطول هذا القرف وهذه الحرب أكثر من ذلك؟

أفرك بملل حنكي بكعب يدي:

ـ هل لديك معرفه بتفسير الأحلام؟

ـ ألا تعرف أن من يجيب السؤال بسؤال أحمق؟

ـ بلى، لكن ألا تعرف أن من ينتظر نهاية هذه الحرب ستقصف عمره قبل ذلك؟

- قصف الله عمرك على هذا النكد.. طيب. وبمَ حلمت؟ هل بستة مدرسين عجاف مملين مثلك ومديرهم سمينهم سابعهم؟ كل الناس تحلم، عادي، زوجتي تحلم، أبي العجوز في حضن أمي يحلم، حتى بقرتي كل يوم تجأر آخر الليل، وعندما أتفقدها أجدها تغط في نوم عميق. عادي أيها الممل، كل قصار القامة الحالمين في هذا البلد يتواسون بالأحلام.

فجأة تحجز "رجاء" بين حديثنا، فهذه المعلمة تدس أنفها بين كل أذنين؛ إذ لم أكد أبدأ سرد حلمي حتى قفزت بقربنا بأطرافها الطويلة وجلبابها الأسود. فكلما نظرتُ إلى حجابها الأسود في هذه القرية المحافظة، يخيل إليَّ أنها قامت بلف شعرها تحته معقوصًا كذيل دجاجة سومطرة، وهي موضة دأبت النسوة على اتباعها لغواية الرجال في هذه القرية في الفترة الأخيرة، مع الاحتفاظ بظلال خضراء من المكياج رُسمتْ حول العينين. ولو أعلم أن الحكومة تبيح حلبات الفايت للدجاج والديوك، لكنت جزمت لك – عزيزي القارئ – أن هذه الدجاجة في هذه المدرسة ستكون بطلة الموسم.

دائمًا تجدها في حالة تذمر، سمعتها ذات مرة تندب حظها الميؤوس منه لرفيقتها في حصة الفراغ، قالت بأسى:

- نعم، آه، نعم، إني مسحورة يا صديقتي، قالت لي أم علي المخاوية أن العرسان في هذه القرية لا يلاحظون جمالي لأن أحدهم كتب لي حجابًا.

ـ حجابًا!

ردت زميلتها مواسية باستغراب.

ـ نعم، حجابًا؛ لأبقى عانسًا، أعرف من فعلت ذلك، إنها تلك الشلقة جارتي، من تلعب بعقول الرجال، إنها تغار مني.

ـ هل عادت أم علي لعملها في فك السحر؟

ـ حذارِ أن تخبري أحدًا. لقد حلفتُ لها على المصحف إني لن أخبر أحدًا لكشف طالعي وفك السحر، أنتِ أول واحدة أخبرها بذلك، أنتِ خارج الحَلِف، تعلمين ما يعني إن وصل الأمر لهيئة الأمر بالمعروف التي يديرها الفصيل الإسلامي في هذه القرية، سيقطع رأسها على أقل تقدير.

ـ لا عليكِ في ذلك، فأنا أدري بهذا الحال أكثر منك. لكن يا لكِ من مسكينة!

ـ آه، الحاسدون كثر يا صديقتي.

كلما رأيت هذه المدرِّسة أتذكر ذاك الحديث، مسحورة! على جمالها أم مالها؟! ليتني أستطيع أن أقول لها إن كل بنت معتوهة تُولد في القرية يلقبها الأطفال في الحي بـ "رجاء"، فكيف لها أن تكون مسحورة!

اليوم – وكالعادة – وقفت خلسة على مرمى نفس مني ومن سيَّار، ضحكت دون مبرر للضحك، ثم أقفلت ضحكها مسرعة، فهي دائمًا تلوِّح بإصبعها في وجوه الطلاب مرددة: "البيوت أسرار يا طلاب"، لكن ليتها تعلم أن على كل شباك وباب هناك معلمًا مثلها يسترق السمع:

- القانون قانون أيها الأستاذان. ألا يكفي تغيبكما المتكرر وتأخركما عن الدوام؟ لو سمحتما ليتجه كلاكما إلى صفه وطلابه، وإلا..

أنا – ومثل إنسان ستشوان الطيب – أحترم القانون، وأكره الـ (وإلا) تلك التي ترددها دومًا، بل التي يرددها الجميع بعد الحرب في وجهي؛ لهذا أجدني أستمع لكلامها بكبرياء حتى لو كان زائفًا، ثم أجرُّ نفسي متجهًا إلى طلابي لعل أحدهم يستمع لحلمي. وبيني وبين نفسي أردد ما قاله بريخت يومًا: "إن الطيبة طبيعية في الإنسان، أما القسوة فإنها تتطلب جهودًا كبيرة. غير أن ثمن الطيبة في عالم كعالمنا، غالبًا ما يكون مرتفعًا".

دخل الله

هو يعرف كيف يأكل الكتف، وكيف يوظف الحرب لصالحه، مثقف وينتمي إلى عشيرة. فمنذ أن وجد نفسه مطرودًا من وظيفته لدى الحكومة، ونازحًا بلا مأوى أو عمل، تفتحت عبقريته وبحثه الدؤوب عن ثقافة مضادة، فهو لا يتعب من توصيف المجتمع بحثًا عن حركة ثقافية معارضة للقيم الجمالية والأخلاقية السائدة في مجتمعه، لكن منذ انهيار سعر الصرف وقفز الدولار ومعه السلع لأسعار جنونية، لاذ بالصمت هو وحركته تلك، وأخذ يبحث بشهية مفرطة عن عمل مثله مثل سائر المُعيلين في سوريا بعد الحرب، وعليه تمكن من دحر البطالة له ولعائلته الكبيرة. وأمام عبقريته، شاع بين الناس قانونه الشهير، والذي بات يردده الصغير قبل الكبير. يقول القانون: "إن رغبت في شراء أرض فلتشترِ بكل مالك، وإن رغبت في التجارة فلتتاجر بنصف مالك، وإن رغبت بشراء بيت فلتشترِ بفائض مالك، وإن رغبت في كل ذلك فتاجر في حميرك".

من هنا لم يعد يحبه سكان البلدة، ربما لأن الكره والحسد هما المهنة الوحيدة التي باتت تشغلهم في هذه السنوات المرَّة، أو لربما لأنه من المستحيل أن ينقرض بفعل ثورة أو حرب أهلية أو حتى نزاع عشائري طويل، فهو مدرك أن أي عشيرة لكي تبقى لأكثر من ربع قرن يجب أن يكون معدل إنجاب الأطفال في كل عائلة منها بمقدار اثنين فاصلة أحد عشر كل عام، ومعدل أقل من هذا سيؤدي إلى اندثار هذه العائلة وهذه العشيرة.

ولا أعتقد أن "دخل الله"، وبعشيرته الممتدة بأذرع أخطبوطية لأكثر من ستين جيلًا، يخشى انقراض ثقافته وعشيرته، فهو قادر على الصمود لأكثر من عشرة قرون بأريحية، فهذه الحرب لم تقطع نسله كغيره من السوريين، وقادر على الإنجاب، وقادر أن يذكر لك اسم جده التاسع في تسع ثوانٍ. وكل هذا سببٌ كافٍ ليخلق له الأعداء.

وأهم هؤلاء الأعداء – باعتقادي – كان "زوبا"، وهو الاسم المحلي لـ "منصور" بيَّاع الديوك في البلدة، ففي ذاك النهار، وحين بلغ الفقر مبلغه به – شأنه بذلك شأن كل سكان البلدة – وتفشت المجاعة في البلدة، عصب رأسه بمنديله إلى وراء كذيل حصان كاشفًا عن صلعته المغمورة بالعرق والمسفوعة بتأثير الشمس، فبدا مثل ديك بلدي أصيل يبحث عن أحدهم ليبوح له بما يعصف بصدره من حقد وحسد، فجرَّته ساقاه إلى صبحي، شاعر البلدة الوحيد، الحساس والرقيق، وهو شاب نحيف وخط قليل من الشيب جانبي رأسه، كان في بستانه يشذِّب زروعه الذابلة ويتفقدها.

وعلى الفور أخذ زوبا يطحن فكيه في الكلام، قبل أن يلقي عليه التحية حتى، فكانت تبرز أثناء حديثه المستعجل بين حين وآخر لحيته المتوسطة تحت أسنان مهترئة قبل أن يجمِّع رجليه تحته، ثم أخذ يرمق فأس صبحي وهو يزرع البصل وبعضًا من الثوم، متحدثًا بإعجاب عن عبقرية دخل الله:

- يمتلك تسعة حمير، ويحبها كحب أبنائه، ويومية كل حمار عنده ألف ليرة في الوادي، ألف ليرة! يعني تسعة مضروبة بألف يساوي، ممم يساوي تسعة آلاف ليرة، إنها أكثر من يومية أستاذ جامعي في العاصمة يا رجل..

سكت قليلًا بنزعة قلق، ثم أخذ يجيل بناظريه مساكب البصل التي زرعها صبحي وكأنه يتمنى في سره أن يكون حمار دخل الله العاشر. وبين حين وآخر يمط طرف فمه بابتسامة مواربة، يغمزه ويومئ برأسه إليه كمن يطلب منه أن يكمل عمله وألا يعطي بالًا لحديثه، لكنه يكمل بغيض ولا يقدر إلا أن ينط بقربه ويمضي في حديثه:

- لعل كلامك في محلِّه يا صديقي.
- أي كلام تقصد؟ لم تسمح لي بأن أتفوه بحرف منذ مجيئك! (أجابه صبحي مستغربًا).
- أقصد كلامك السابق عن العباقرة، إنهم فعلًا أشخاص غير أسوياء، انظر إلى وجهي، إلى قامتي، إلى وسامتي، فإلى متى سأبقى أبيع الديوك؟ آه، الجميلون دائمًا غير محظوظين، ربما لو أني مثل هذا الآلي البشع دخل الله لكنت عبقريًّا وكانت حالتي أفضل.

انزوى زوبا قليلًا، ثم أكمل يسأله ببلاهة:

ـ هل تعرف في التاريخ عباقرة تشبهني؟

لم يفهم صبحي ما يقصده، وحاول أن يستذكر بصعوبة هل نظرية (كل عبقري غير سوي – دخل الله عبقري – إذًا دخل الله غير سوي) هي له أم لا، لكنه سكت وأخذ يفكر بجواب لا يجرحه فيه؛ لأن ما يعرفه – ومن دون مراء – أن النميمة في هذه البلدة هي غذاء الروح، وبما أنه لا يقدر إلا أن يكون الرجل الواعي الوحيد هنا، ما كان منه إلا أن جعل يواسيه، ألقى بالشوكة والفأس وتربع فوق جزمته الغارقة في الطين، وطفق يشرح له وجهة نظره بنميمة خانقة ومملة، وكيف أن غالب العباقرة عبر التاريخ إما مجانين وإما مختلُّون عقليًّا، أو أن ولادتهم كانت غير سويَّة، وكيف أن فولتير مثلًا وُلد نصف ميت، ونيوتن وُلد قبل أوانه، وكينز وهوغو وتشرشل وديكارت كانوا بصحة سريعة العطب، كما كان فيثاغورس وتشارلز السادس ونيتشه، وغيرهم كثر، يعانون من نوبات جنون وصرع رهيبة. في حين امتلك كثيرون عاهات مختلفة مثل الطرش لدى بيتهوفن، والعمى لدى طه حسين، والتوحد لدى بيل غيتس، ووجه بائس مثل غوريلا شمطاء لـ"تلستوي"، ورأس ضخم لـ"ميرابو".

ـ لكنهم ليسوا محتالين كدخل الله. نعم، إنه حربوق، لكنه محتال. أنت شاعر، لديك معرفة ببواطن الناس، كما أنك تعرفه أكثر مني وعليك أن تكون منصفًا في حديثك.

رد عليه زوبا مقاطعًا يتملَّكه الحقد، ومراعاة لمشاعر زوبا أجابه صبحي:

- دخل الله ابن هذا المكان وابن هذه الطبيعة، أفكارنا جميعًا أسيرة هذه الوديان، فالاقتصادي يفكر وفق جغرافيته، والروائي كذلك، والفلاح والأمي وبيَّاع الديوك والسياسي وراعي الأغنام، جميعنا نفكر انطلاقًا من مكان عيشنا، ودخل الله دفعته الطبيعة كي يلجأ إلى التهريب وأن يسرق أفكار الفلاحين في القرى المجاورة، فهم يمتهنون التهريب وكلنا يعرف ذلك؛ لهذا حذا حذوهم فقط، وأطلق حميره في هذه الوديان والجبال، تمامًا كما الشعراء والمفكرون يسرقون أفكار غيرهم؛ خذ مثلًا حين كتب بابلو نيرودا قصيدته (الأرض تسمى "خوان")، أعجبت محمود درويش كلمات نيرودا القائلة (قطعوا يديه، وهو اليوم يضرب بهما)، وبعد عقود كتب درويش (سقطت ذراعك فالتقطها – واضرب عدوك بي)، ألا يوحي لك ذلك أننا جميعًا نعتاش على أفكار الآخرين؟

سكت زوبا مجددًا وتقلَّب وجهه وهو يفكر، ثم استند قائلًا:

- ما الرابط بين هذا وذاك؟ ما لي ولدرويش ولنيرودا؟ وما أهمني أنا بالشعر والشعراء؟ ما لي أنا لحسين وبيتهوفن؟ أنا لي دخل الله، إنه رجل محتال، وعليك أن تقتنع بذلك حتى يرتاح ضميري.

ـ نحن الشعراء لا نخادع في انحيازاتنا؛ لذا لا أسمي ما يقوم به احتيالًا، بل أسميه الذكاء العملي. هذا رأيي، ولن يجبرني أحد على تغييره.

أكثر زوبا في حديثه من استدراكاته واستثناءاته، وكان يصغي إلى صبحي باهتمام، لكنهما تعارضا حد العصبية حين قال صبحي إن دخل الله شخص عادي لكنه غيَّر أصوله الإنتاجية عندما تبدلت قوانين العرض والطلب في البلاد، ولهذا وبدل أن يعتمد على أولاده أخذ يتاجر بحميره.

ولمعرفة صبحي بفرط عصبية زوبا، ومعرفة زوبا بحساسية صبحي، اتفقا في النهاية بعد شدٍّ وجذب أن دخل الله مثل سائر أبناء سوريا بعد الحرب، مخلوق حساس وبريء لوَّثته الحرب ببندقية وبلحية مستعارة.

السيد "بلا مؤاخذة"

كل الرجال في هذه القرية يهرمون ويموتون بفعل زوجة سيئة أو حاكم شمولي ليس في دستوره كلمة (لا). أما هو فأسطورة، لغز، بل فوق العادة، في حين لا أجد ما يلائمه أكثر من اسم الرجل الأخير.

فقصارى القول أن المرء هنا في هذه القرية قد يرى أناسًا محترمين من كل الأنواع، فيما عدا رجال الدين والجيل الرابع لشبيبة هذه الحرب ممن خلقتهم أجهزة المخابرات الوطنية والأجنبية طوال سني الاقتتال.

فمن الجميل أن ترتجي في قرية سوريَّة صغيرة غرقت في الدم لسنوات حتى ذابت فيها القيم والأخلاق أن تجد شابًّا لا يشعر بسن اليأس؛ لذا فغاية القول أنِّي أنا الثلاثيني لم أوفَّق حتى الآن بأكثر من هذا الصديق، فهو رجل في الأربعين، ذو وجه مدور أسمر جميل، ولا يُذكرني بسوى رفاق المسيح الأوائل؛ إذ يعرف متى يلوذ بالصمت ومتى ينبري للإجابة مثل قدِّيس حقيقي في عالم كافر، لكنه ليس مثلهم يطوف بالبلاد قاطعًا مئات الأميال علىً ساقيه باحثًا عن وصيَّة.

زرته وكان الجو ضاحيًا جميلًا، والوقت غداء والمائدة على ازدحامها لكنها جدُّ لطيفة؛ حيث عَلَت رائحة اللحم المطبوخ التلال المحيطة ببيته، وإن اليد التي عنيت في صنع هذا الطعام أضفت عليه قيمة تفوق كل تقدير بين البساطة وطيب النفس، لكن ازدحام الأنفاس ولهاثها فوق المائدة لم يقف حائلًا أن يكون كرمه ملزمًا مشاركتي لهم هذا اللهاث.

استقبلني وكان ما لم أرد، حيث ردد عبارة قريتي المعتادة: "بلا مؤاخذة حماتك تحبك أستاذ، بلا مؤاخذة إياك أن تفكر في الرفض، فعيار الشبعان عند البدوي أربعون لقمة".

حكمته تلك، والمسبغة دومًا بعبارة "بلا مؤاخذة"، والتي يكررها في اليوم مئات المرات، تخبرني لِمَ نحن جوعى دومًا ولا نشبع. فالكل هنا تغيَّر، وإن كان هناك عبارة لها معنى أدق من تلك الكلمة، أستطع أن أقول إنَّ الكل هنا "توحَّش"، لكن هذا الكرم المتوحش في أوداج هذا الصديق والبادية بخطوط غليظة على جبينه وصدغيه، تُثبت أن القيم الحقيقية لا تتبدل أو تتحول.

انتهينا وكان حديثه غارقًا بالانفعال على توحش الواقع، والذي لم أرَ من مسلك انفعالاته سوى جانبه الطيب، فقد تحدث بلا ملل أمام الجميع عن تجربته القاسية في المعتقل، ووجدته متأثرًا في سجنه أشد التأثر، فلقد تركت الزنزانة في نفسه طابعًا فظيعًا، ولمَّا كنت الشخص الوحيد الذي يتعاطف أشد التعاطف لآلامه، التصقت نظراته لي نامَّةً عن احترام. ثم بين الفينة والأخرى التفت إليَّ وقال بصوت منخفض:

ـ لقد وهن جسمي وهان صبري هناك، فلا ترتجِ أن رفاقك ممن فُقدوا في هذه الحرب منذ أكثر من عاَمين سيكونون أحياء. لقد تفننوا في تعذيبي، لا أنسى كيف أن أحدهم كان يجلدني بحقد بخرطوم بلاستيكي سميك، وكان يصرخ مع كل جلدة ويقول: "الله أكبر". هل يرضى الله على ذلك؟! كان يلسع ظهري كخيوط النار، لكنني لم أتمكن من معرفته، كان يرتدي لثامًا أسود، وحين تعب من تعذيبي اقترب مني وقال بلؤم: "نحن أحن عليك من أمك". بلا مؤاخذة جميعهم ملثمون وملتحون، ومنظمون غاية في التنظيم، حتى لو عرفت اسم أحدهم فلن أفتح فمي في ذلك حتى أموت، لكنني بلا مؤاخذة سأقدم شكايتي منهم ومن زوجتيَّ إلى الله، هو وحده من سيأخذ حقي؛ لأنني بريء، أقسم بربي إني كنت بريئًا من شكايتهما لي إلى هؤلاء المجرمين، من سرقوا السلطة ونهبوا حريتنا.

بعد ساعة من الحديث المتواصل، توقف ثم تطاول على قدميه أمام الجميع، حطَّ يده على كتفي وقال كتذكرة:

ـ بلا مؤاخذة يا شباب، أعرِّفكم على جاري وصديقي. وبلا مؤاخذة، فهو صديق عزيز وابن عشيرتي العزيزة، ودعوتكم اليوم ودعوته لتكونوا شهودًا على زواجي الثالث.

الفاجعة كبيرة

ترجَّل الطبيب عن دراجته الهندية، خلع خوذة رأسه، تمطى من التعب وتنهد بصوت عالٍ. وقف ثم حملق من خرمَي عينيه الضيقتين إلى السماء، حيث أشعة الشمس اللاذعة في هذا اليوم الحار والمتقلِّب من شباط دفعته إلى التذمر بإيمان:

- كان الله في عوننا على نار جهنم.

دائمًا أسمع تلك الجملة، يبدو أننا شعب واثق أن مصيره جهنم، أعتقد أنه لهذا السبب نزاول أعمالنا بلا ذمة أو ضمير.

أراح مؤخرته على حجر قبل أن يبدأ، كان طرف فمه المتهدِّل وعينه اليسرى المرتخية مشدودَين بعصبيَّة إلى جانب وجهه الأيسر؛ إذ يبدوان للناظر أول مرة كأنهما مربوطان بخيط بأذنه اليسرى.

أبيض نحيف، ويلف شالًا فلسطينيًّا حول عنقه، وقد ارتدى جاكيت جلد أسود، وبنطال جينز أزرق بحريًّا، فوق حذائه الرياضي المصنوع محليًّا.

نهض واقفًا ثم اقترب من المريضة، غمغم في سره ممتعضًا بكلمات غير مفهومة، ثم سوَّر حدود عينيه بعدستين طبيتين أخرجهما من جيب سترته المتسخ، وراح يراقب بتمهُّل حالي الحزينة والمكسورة على بقرتي، ثم انفجر قائلًا:

- من يتكلم معك طبيب بيطري خبرة سبعة عشر عامًا، ستكون بقرتك جيدة، فلا تمخر رأسي بقلقك.

وبعد معاينة وتشخيص لأكثر من ربع ساعة، استوى على قدميه وتنهد:

- آه.. بقرتك تعاني من تسمم حاد، أو التواء مصران. أو إنها ابتلعت قطعة حديد. أو لربما لديها حمى؛ فحرارتها مرتفعة. لا تقلق، سنضع لها (سيروم)، وستنط بعد قليل مثل القردة.

مرت ساعة وما زالت البقرة تعتصر معدتها، وتتلوى على وجعها مثل عروق البطيخ حتى دعكت الأرض تحتها لشدة الألم، في حين جعلتني أتنقل حوله بقلق مستفسرًا عن عدم جدوى معاينته، عبس في وجهي، فأظهرت حبات العرق النافرة على أنفه المعفَّر بالتراب كم جاهد لإنقاذها؛ لهذا صاح في وجهي قائلًا: "لا تجادل طبيبًا قديمًا".

سكتت فورته، ثم دسَّ إصبعه في أنفها دون أن يتعب وهو ينقِّل إصبعه بين أنفها ومؤخرتها مستعيضًا به عن ميزان الحرارة، عاد بتمهل لحقيبته، أخرج سكينه ومسك مقبضها المكسور والملفوف

بقطعة من دولاب داخلي قديم لدراجته النارية، تفحَّص حدتها على أشعة الشمس اللامعة، ثم ببساطة نحرها.

أنهى جريمته بتؤدة، مسح سكينه بجلدها، اقترب مني وقد وقفت مشدوهًا مأخوذًا بالصدمة، وضع يده على كتفي وقال: "في هذه الحرب قد خسرنا رجالًا كثرًا، وعائلات بأكملها تم طيُّها للنسيان، بقرة تموت لن تكون نهاية العالم".

أقفل نصيحته وحقيبته وركب دراجته ورحل، ومن يدري؟ لربما لارتكاب جريمة أخرى.

كان المشهد كئيبًا، لا ينقصه سوى موسيقا حزينة لـ«موتسارت». أواري عينيَّ الدامعتين كي لا أرى دمها المتسرب تحت قدميَّ، لون العشب الأخضر صار أحمر، الحياة لم يعد لها طعم، وبلا لون أو رائحة.

تسير الطبيعة من حولي ببطء وملل، وعيناها الجامدتان مزروعتان على وجهي المتشنج. تأخذني العبرة فأغطي وجهي بكلتا راحتيَّ المتشققتين، أجرُّ بغصَّة بالغة بطانية أغطي جثتها الممددة، أجثو فوق رأسها على ركبة ونصف أداري وجعي، أقبِّلها على أنفها البارد بلوعة، فتجرني الذكريات، أنتحب كطفل فقد أمه.

آهٍ يا بقرتي الحنونة والطيبة! كيف لي بعد اليوم أن أترنم على خوارك الذي رحل؟! كل شيء حولي في المراعي والمروج قد عراه الذبول، الحياة من حولي خلت من كل شيء، ورائحة زبلك ما زالت تملأ الخان والمكان.

بقيت على تلك الحالة مطويًّا على ألمي، مقيَّدًا بحزني، مبالغًا في حدادي، إلى أن زارني صديق قديم، نظر إليَّ ثم واساني قائلًا:

- رحم الله بقرتكم، صحيح أن الفاجعة كبيرة، لكن الأمل في المعزاة.

الحرب أسقطت شاربَي جدي

في صغري، كل من تذكَّر جدِّي دمعت عيناه، وقف وقال لي بحرقة وشوق راعف للإرث العتيد: "الله يرحم شوارب جدك يا عم". وحين كبرتُ ونما الشعر على وجهي المرعب وامتهنت التدريس، بقي الحنين وذاك الشوق كما هو ولم يتبدَّل، لكن ما تغير هو كلمة واحدة فقط: "الله يرحم شوارب جدك يا أستاذ"؛ فالذي تغير هو مرحلتي العمرية فقط، بينما بقي المديح والولاء لشاربَي جدِّي ثابتًا بمرور العصور.

المثير في الموضوع أن لا أحد يذكر أبي كذكرهم لجدِّي، رغم أن أبي كان ضمن صفوف الفدائيين بشاربَين جميلين ومعتدلين في فترة سالفة من سبعينيات وثمانينيات القرن المنصرم في الجولان، حين كانت العروبة على طهارتها وبراءتها الأولى. ربما لهذا السبب جاء عدائي للعروبة، وكنت أجيد العناية بالحفاظ على هذا الإرث الذي عني به جدِّي، لا أقصد المقاومة والممانعة، بل العناية بشاربَيَّ.

فأنا من قرية تعشق وتقدِّس الشوارب، فكيف لا ترث عائلتي هذه القداسة إذًا؟! فالكل هنا يعرف جيدًا كيف أن شاربَي جدِّي لم تستطع أقوى الزوابع أن تحركهما – هذا ما كانت تردده جدتي بتكرار –. فهما في صورة له على الحائط مدعاة فخر العائلة.

لهذا كبرتُ، وكبر معي هذان الشاربان، أعتقد أنهما الشيء الوحيد الذي ورثه أبي عنه – أقصد سمعة شاربيه – مع بعض ديونه.

فهذا النمط السردي التاريخي اعتادت كل العوائل هنا أن تحتذيه، بأن تضع صورًا من القطع الكبير والمتوسط لرب العائلة وهو مفتول الشاربين في صدر البيت، صورًا تعود لحقب أكل عليها الأجداد، وبصق بسمعتها سرًّا الأحفاد.

لكن مع نهاية العقد الأول من الألفية الجديدة، وارتفاع مستويات التعليم في الريف، وغزو الإنترنت والمسلسلات المدبلجة، كل ذلك خلق ثورة جديدة يحملها جيل جديد يؤمن بالتغيير في طريقة ونمط تفكيره وحياته وحتى هندامه. أمام هذا المنعطف وجدت صعوبة بالغة في العيش أسير نمط جدِّي التقليدي، خصوصًا حين بلغتُ الخامسة والعشرين وقررت الزواج.

فلهذا الجيل نمط حياة مختلف تمامًا، ويبدو أنني بهذين الشاربين لا قدرة لي على مجاراته، فأذكر أني عرفت مدرِّسة والدها محام ولم يكن لإرث عائلتها شاربان، أحببتها سرًّا، تمامًا كأي شاب في هٰذه القرية يلعن خفيةً روح التقاليد.

والأهم من كل ذلك أني بسببها حلقت شاربَيَّ. نعم – عزيزي القارئ – فعلتها حين وشت لي إحداهن أن تلك السمينة تقول إن شكل شاربَيَّ بدائي ومتخلف.

لا أنسى ذاك اليوم أبدًا، حين أغمضت عينيَّ بوجع وشددت قبضتي على آلة الحلاقة وأكملت جريمتي، إنه تمرد واضح، فالصدمة الأولى لجمهورك قد تكون قاسية أحيانًا، خصوصًا حين تبدأ بنمط جديد لحياتك، تتمرد فيه على إرث عمره خمسون عامًا.

أمي، أخي الكبير، عمي، مديري في المدرسة، الكل وقف فاغر الفم، ثم انبروا جميعًا وبوقت واحد في إهانتي بعناية، استوقفوني جميعًا وبنظرة حزن قالوا لي كلامًا يفضل عدم سماعه لمن هم دون الثلاثين.

بعدها بعام استيقظت الفتنة في بلادنا، وأكلت الحرب كل شيء جميل حولنا، وتملَّشت قرانا بفصائل تنادي بفكر جديد، أهانوا تاريخ جدِّي، حطموا صورته بوجوههم المكررة، وأذاعوا في مكبرات الصوت في المسجد والمدرسة والمآتم أن حلق الشارب سنَّة. ومنذ ذاك الحين أصبح جدِّي من منسياتهم إن لم يكن من لعناتهم، فرحم الله شاربَي جدي.

يومٌ آخر ممل..

صباحُ آخر مجعَّد.

ماء عكر في البركة.

شجرة الكينا الضخمة تحجب بظلالها قسمًا من البركة.

وفي القسم الآخر، تراقب عيناي ضفدعًا نطَّاطًا وهو يجعِّد بساقيه المقوستين وجه الشمس الرابض في قشرة الماء الغنية بالطحالب.

يسبح ثم يغوص في الأعماق،

ثم يختفي.

وحين أنتظر آخر،

يقترب خارج البركة جاري حمد. بدا بيديه المقشرتين بفعل العمل بالأرض، وقميصه الأخضر المقلَّم، كتمساح جذفه النهر خارج ضفتيه.

فوقنا شمس صفراء باهتة كما في السنوات الثماني السابقة.

ماء ضحل وشمس،

شمس وماء،

وبينهما يسقط وجه حمد المغمَّس بالخذلان.

بشفتين قشيبتين أتعبهما رمضان وهذا العمر المقيت، يقترب جاري فوق رأسي مغاضبًا:

- ماذا تتأمل؟

- لا شيء، أقضي ساعة أخرى من هذا العمر.

تأوه ثم رد بملل:

- قبلك تأملت اللا شيء، تأملت كثيرًا، انظر لهذا الرأس، لم يكن كذلك قبل عام، كان هنا شعرة واحدة بيضاء، وهنا اثنتان وقرابة أربع في قُصَّةِ رأسي، أما الآن فيكاد يندر الشعر الأسود في رأسي.

صَمتُّ، ثم نظر إليَّ نظرة خاوية:

- ما بال وجهك وقد سفعته الشمس؟! ازدادت سمرتك عن آخر مرة رأيتك بها يا حلو.

- إنها الزراعة، قطيعة تقطعها.

شيئًا فشيئًا أقتربُ من وجه البركة لأكتشف كم غيَّرت الشمس من جمال وجهي.

آه يا وجهي الحلو!

كم أنت فارغ،

يا وجه الهموركتس البائس،
يا أول خطوة للإنسان،
وآخر سلالات الخطيئة!
آه يا وجعي!

وكأنه سمع مرثياتي التي رددتها بسري، فقال ممازحًا:

- لا تقلق، في القسم الآخر من عالمنا يدفعون مالًا ليحصلوا على هذه البشرة السمراء، إنها موضة.

سكتُّ، ثم وبقصد شوَّه مرآة وجهي بحجر صغير قذفه في وجه البركة، ثم أكمل حديثه متسائلًا:

- ما المبهج في هذا العالم يا جاري؟

شيء ما في كلماته الأخيرة حرَّك ماء قلبي الراكد. حوَّلتُ رأسي إليه، ألقيت نظرة فارغة إلى مراغم وجهه. آه! كم غيرته السنون! شاربان حليقان! أين هما الشاربان العربيان الغليظان؟! يا قلب أمي الحنون والموجوع! كم غضَّنت الأيام وجهك يا جاري:

- هل أفهم أنَّك طُردت من وظيفتك؟

هز رأسه بالإيجاب، ثم رمى حجرًا آخر.

- وماذا الآن؟
- لا شيء، أصبحت عاطلًا عن العمل.

قال ذلك، تأفف ثم غرق تفكيره في البركة، عيناه الفارغتان تغوصان في تفكير عميق:

ـ بماذا تفكر؟

ـ بلا شيء.

ضحكتُ ملء قلبي، تذكرت أني كنت مدرسًا ولي طلاب، ثم كررت مازحًا:

ـ قبلك تأملت اللا شيء، تأملت كثيرًا، انظر لهذا الرأس، ولهذا الوجه الأسمر الحلو..

ابتسم ولكزني بكوع يده، تمطى ثم صاح حتى فزعت لصوته غربان فوق شجرة الكينا:

ـ صباح آخر ممل. لِمَ جمعتني بهذا الكئيب يا إلهي؟!

سبب مقنع للجوء

غَسَلتْ عيناي على عجل هيئته وهندامه، ربما هي آخر مرة أرى فيها فتحة قميصه التي غصَّت بشعر صدره المعقوف كذيول العقارب، شعره المصفوف إلى وراء بلا مثبتات شعر في نمط تسعيني للموضة، بنطاله القماش وقميصه الفضفاض وقد أخفى كرشه في مشدِّه القطني الذي قرر التأقلم معه على مضض.

فبعد أن باع كل شيء، بيته، غرفة نومه، حتى صحون المطبخ، جاءني مودعًا وقد أراح كتفه من كيس خيش فيه كتبه. وقف أمام بيتي بوجه أسمر جميل مثل سمرة سكان حوض النيل، وقد تورمت أوداجه من التعب.

ألقى راحة يده الناحلة على كتفي، أقفل عينيه وهوَّم رأسه لاهثًا:

- هل أخبرك بسر؟
- قل.
- آه! ما أبشعك وأبشع الطريق إلى بيتك يا رجل!
- أبي يحب أن يكون دائمًا في القمة؛ لهذا بنى بيته في الهضبة.

- تقصد لهذا السبب انقرضت عائلتك.

أخذ يجمع أنفاسه:

- غدًا أنا ذاهب إلى ألمانيا، وراحل عن كل هذا العفن من حولنا، وعن ماعز جاري "أبو صلاح"، وعن كل من تاجر بنا. وفي هذا الكيس كتب لم يشترِها أحد؛ لذا اعتنِ بها، وإن عدت أخذتها، أكرر إن عدت أخذتها منك، وإلا أسترد ثمنها منك باليورو.

رددت مستغربًا:

- إلى ألمانيا؟

تنهد ورد بإصرار:

- آه.. نعم.. إلى الجميلة ميركل.
- ولِمَ الآن؟
- لأني أريد أن أشرب ماءً مثلَّجًا؛ أربع سنوات لم تأتِ الكهرباء ولم أشرب ماءً باردًا يا رجل! افهمني، لا أحد يفهمني هنا. لم تسقِني هذه الحرب سوى الذل.

وحين وجد أني لم أكن مقتنعًا بروايته، أخرج هاتفه ثم أكمل بجديَّة:

- انظر، هذه صورة صديقي وعائلته في برلين، انظر جيدًا إلى الكولا المثلجة والماء البارد، انظر كيف تتعرق وتتندى من البرودة.

ثم أخذ يقلِّب صور صديقه هناك وهو يلمِّظ شفتيه القشيبتين ببعضهما البعض. ثم قلت برجعية محضة ومكررة:

ـ لن تجد أطيب من هواء هذه البلاد.

ـ اسمع يا رومانسي، خمس سنين وأنا آكل الهواء؛ لهذا شبعت من هواء بلادي.

أقفل حديثه، احتضنني بقوة، قبَّلني بتكرار، وغرقت عيناه بالدمع، بدمعة واحدة فقط اختنقت فوق كتلتين من اللحم الأسمر في وجهه، وضع كتبه على الأرض وقال لي بوجع:

ـ انتبه لنفسك، قد لا نرى بعضنا البعض بعد اليوم، فبعد أن عبث الشيطان في بلادنا قد نموت في أي لحظة. أنت الوحيد الذي أقوم بتوديعه، أتعرف لماذا؟

ـ لأني أحلى واحد في هذه القرية مثلًا؟

(قلت ذلك لعلِّي أغيِّر جو الكآبة الذي خلقه وداعه لي).

ـ بل لأنك أغبى شخص عرفته في هذه البلدة، لأنك مثلي ضحية حرب لم تكن طرفًا فيها، وفوق كل ذلك خسرنا كل شيء، وهم ربحوا كل شيء. انظر كيف قتلوا شبابنا ودمروا منازلنا وحوَّلونا إلى نازحين في بلادنا، وفوق كل هذا تريدني أن أبقى! لن أبقى، سأذهب إلى الحاجَّة ميركل، هناك يوجد قانون يحميني، ويقال إن عندها ماءً مثلجًا لا يشبع منه أحد.

رحل، وفي إثره خمَّنت كيف شرَّدت ودمَّرت أيدينا هذه البلاد.

لا تثق بالأرصاد الجوية

لديَّ قريب لا يخلو من اللطافة والخبرة، خمسيني وبصحة جيدة، دائمًا يقول إن الحياة "دعكته" حتى أصبح صاحيًا للطماتها.

أصرَّ في ذاك اليوم أن أزرع أرضي في موعدها كما في كل عام، استأجر جرارًا – على حسابي طبعًا –، وحمَّلني أكياس البذار، وقمت بنقلها للأرض مجهدًا.

أخبرته أن الأرصاد الجوية توقَّعت عدم سقوط الأمطار خلال الأيام القليلة القادمة، لكنه لم يعطِ حديثي أهمية، نظر إلى السماء حيث نامت فوقنا غيمة كبيرة كأفعوان صيني، غطَّس إصبعه في جوف فمه ثم تركه حرًّا للهواء، نفَّضه كمن ينفض ميزان حرارة، ثم قال:

- أرصادك الجوية تكذب.
- قد يكذب الموظفون، لكن الأقمار الاصطناعية والتلسكوبات لا تكذب.
- ومن أخبرك يا حنون أن لدينا تلسكوبات وأقمارًا، إنهم يكذبون عليك.

تأوه ثم أخبرني حكاية طريفة لا أدري من أين ابتدعها أو سمعها. تقول الحكاية:

«في مكان ما في البادية السورية، كان شتاء أحد الأعوام قاسيًا جدًّا، فقد غرقت خيم البدو، والتهمت السيول الجائعة خرافهم. وفي العام التالي، ومع بداية الشتاء؛ وقف أهالي إحدى القبائل أمام زعيمهم في خوف وحيرة، سألوه برجاء عن حالهم هذا الشتاء، وهل سيكون قاسيًا كما في العام الفائت أم لا.

فكر زعيم القبيلة بحيرة، ثم قال لهم بعد دقائق: "اجمعوا الحطب؛ فالشتاء قاسٍ هذا العام".

سمع أفراد القبيلة نصيحة كبيرهم، لكن حين انفرد بنفسه راودته وساوس حول نبوءاته، فإن أخطأ رأيه فلن يثق به أحد، فقام بالاتصال بالأرصاد الجوية في العاصمة يسألهم عن حال هذا العام، فأجابه الراصد:

- إنه شتاء قاسٍ يا عزيزي.

حينها عاد الزعيم لقبيلته مرتاح البال. إلا أن سكان القبيلة عادوا في اليوم التالي مرة أخرى يكررون سؤالهم:

- هل شتاء هذا العام كقسوة العام المنصرم؟

فقال الزعيم:

- نعم، هو كذلك.

فانتشر سكان القبيلة يجمعون الحطب أكثر من قبل، ومرة أخرى انزوى كبيرهم وعاود الاتصال بالأرصاد الجوية، فأجابه الراصد بثقة:

- إنه قاسٍ جدًّا جدًّا!

هنا أثير فضول الزعيم وسأل الراصد بدهشة:

- كيف تعرفون كل هذه المعلومات؟

أجابه الراصد:

- لقد رأينا البدو في البادية يقومون بجمع الحطب بكثرة هذا العام».

انتهى قريبي من سرد حكايته، ثم قام بربط وزرتي على خصري وملأها بالشعير، شرعت بعدها في بذر الحبوب متوجسًا. وعلى مسافة قريبة لحقني يندب وهو يصفق يدًا بيد:

- هل تسمي هذا بَذْرًا؟

- الكل يبذر بهذه الطريقة، موظفو الزراعة كانوا يبذرون مشتلهم الحكومي بهذه الطريقة.

- لأنهم أغبياء، كلكم أغبياء، سأعلِّمك طريقة مميزة.

ثم وعدني أن يكون موسمًا مميزًا، أضاف في بهنسة:

- لن تجد بذَّارًا في الجنوب كله يفوقني في البَذْر، لا موظفيك الحكوميين، ولا تلسكوباتك الصناعية.

هصر كتفه إلى كتفي، ثم طلب مني أن أقلِّده، مسك في شماله وزرته، ثم ثنى يمينه مثل خطَّاف وقبض قبضة من الحبوب، رفع يده وأدارها نصف دورة وقذف بالحبوب، فبدا كشخص يرقص "رقصة الرجل الآلي".

ثم طلب مني أن أكرر فعله، سألته:

ـ هل من الممكن أن تعيد؟

عاود الحركة مرة ثانية، حاولت فعل ذلك لكنه صاح في وجهي:

ـ القاعدة الأولى: اجعل كوع يدك زاوية قائمة، أنت متعلم ولا تعرف الزاوية القائمة؟! اجعلها ٩٠ درجة.

ـ هكذا؟

ـ نعم. القاعدة الثانية: اخطف بيدك قبضة من الشعير.

ـ هكذا؟

ـ بل هكذا.. اضغط على الحبوب جيدًا. هل صدقٌ أنك درست في الجامعة؟ كيف تخرجت؟!.. اتبعني.

ـ تبعتك.

ـ القاعدة الثالثة: سر خطوة باليسار.

ـ سرت.

ـ ثم يمين، واقذف الحبوب على مسافة مترين ونصف.

قلت ملطِّفًا الجو:

ـ وهل أقيسها بالمتر أم بالديكا؟

- قدِّر المسافة بنظرك. القاعدة الرابعة: واحدة ضم وواحدة فتح.

في تلك الأثناء صاح صاحب الجرار يرجونا ألا نؤخره، وعلى أثره طلب مني أن أباشر البَذْر، وبالفعل انطلقت:

- زاوية قائمة.. يسار يمين.. واحدة فتح وأخرى ضم.. واحدة فتح وأخرى ضم.. زاوية قائمة...

يووه! كان يومًا متعبًا. بعد ساعة انتهيت وقد شُلَّت يدي. بحثت عن قريبي فوجدته قد استوقف صاحب المحراث يحدثه، تحدثا قليلًا ثم طلب مني الإذن بالمغادرة، وقبل ذلك قال ناصحًا: "لا تنسَ، واحدة فتح وأخرى ضم". اقتربت نحو صاحب المحراث وقد راودني هاجس الحشرية، فسألته عمَّا أراده منه قريبي، قال بحسن نية:

- لا شيء مهم، كان يسألني عن الأرصاد الجوية إن كانت ذكرت أن هناك فرصة لتساقط الأمطار قريبًا أم لا.
- وبماذا أجبته؟
- أخبرته أن الأرصاد الجوية قالت إنها لن تمطر لأسبوع على أقل تقدير؛ لهذا طلب مني تأجيل زراعة وحراثة أرضه، كما سألني إن كنت أعرف أشخاصًا لديهم خبرة في بَذْر الشعير حتى يقوموا ببَذْر أرضه بعد أسبوع.

ديالكتيك حوراني

نحن – الجنوبيين – نحبذ أن نسمي الأشياء بمسمياتها؛ لهذا حين دخل العيادة جلس قربي ثم سأل بأدب: ”هل جاء طبيب المؤخرات؟“، يقصد طبيب التناسلية.

لم يمنعه ألمه المتحصل من تحرك بعض الحصيات العالقة في كليتيه من أن يأخذ الأمور بمرح، وأن ينتظر مجيء الطبيب، أو أن يكون مهذبًا وآسرًا جدًّا في حديثه معنا. كما لم يمنعه ذلك من أن يسرق بين الفينة والأخرى نظرة حيَّة للممرضة شبه الميتة وقد حشرت مؤخرتها في كرسي ضيق خلف طاولة الاستقبال، أو هذا ما حاولت إيصاله لنا من خلال شتمها المتكرر للشركة المصنعة ”للكراسي الضيقة“، لتُبعد الشبهة عن مؤخرتها البلاستيكية الكبيرة. لكنها – وللأمانة – حين تسير تقفز برشاقة كما لو أنها تضع نابضًا أسفل قدميها؛ ما يجعلها مثيرة.

سألته الممرضة لتحجز له دورًا:

ـ ما اسمك، سيدي؟

- الموك. وإن رغبتِ في السؤال عن عمري، فقد دخلت مرحلة النبوة منذ ست سنوات.

لنبدأ من جديد:

الاسم: "الموك".

العمر: ستة وأربعون عامًا.

المهنة: أحد أشهر تجار العجول في حوران.

سُمي بذلك لأن بيته تحول إلى غرفة عمليات جمعت غالبية تجار العجول في حوران، يتدارسون معه أسعار الأبقار ويستفتونه في أمور تلك التجارة، حتى اعتُبر رقم واحد في البيع والشراء. هو لا يحبذ هذا الاسم؛ لهذا حين يسأله البعض عن توجهاته السياسية يجيب بالقول: "أنا ناشط حيواني".

وكأي جنوبي، ثمة حقيقة حورانية لديه تقول: "حتى السماء قابلة للبيع"، فمذ بدأت الحرب والكل يعرف أنه العلماني الوحيد في بلدته؛ لذا كان الناس يعاملونه بمزاجية، فما إن يراه أحدهم حتى يرمي له كسرة خبز أو يطلق عليه النار. لكن بعد الحرب، ترك أفكاره تذبل لتنمو مواهبه ويتحول إلى أحد أشهر تجار العجول في البلدة، ولربما في حوران ككل.

ما إن سأله أحدهم في غرفة انتظار الطبيب عن أسعار الأبقار ورغبته في شراء بقرة، حتى استدار نحوه نصف دورة، اتكأ بيده على مسند المقعد الخلفي، تململ بتعب ثم اقتلع عينيه القديمتين

ببطء ليحدثه. من دون نظارتيه كان أحلى، ومن دونهما بانت لحيته الطويلة الكثَّة مثل لحية ماركسي من الجيل التروتسكي القديم.

سأل بخبرة:

ـ هل تريدها للتجارة أم للتربية؟

قال الشاب:

ـ للتربية.

ـ هل تريدها بكرًا أم عوانًا؟

ـ يفضل عوانًا ورخيصة.

ـ بندوق أم فريز أصلي؟

ـ بندوق.

ـ وطنية أم مستوردة؟

ـ وطنية.

ـ عندي بقرة بندوق محلية معشَّرة، ما إن تراها حتى تقبِّلها على أنفها، ورخيصة، بواحد وربع فقط.

ـ تقصد مليونًا ومئتين وخمسين ألف ليرة؟!

ـ نعم.

صاح الشاب:

ـ يا رب السماء! وحدها أم معها هدية؟!

أجابه بمزاح:

ـ يأتي معها سطل حليب هدية. لكن لديَّ عجل عمره شهران، إن كان لديك مصلحة فسيكون لك بسعر رخيص؛ فقط لأجل هذه الدكتورة الحلوة.

ثم نظر إلى الممرضة وأرسل إليها ابتسامة كبيرة.

قال الشاب:

ـ أليس من الأفضل أن يكون هذا العجل مع أمه في هذه السن؟

ـ توفيت المسكينة بذبحة صدرية يوم السبت، لقد عاملتها كابنتي البكر، كانت تنام في غرفتي طوال فترة حملها، لقد ذبحتها بيديَّ هاتين، وشققت بطنها وأخرجت هذا العجل المسكين بيديَّ هاتين.

قال الشاب:

ـ كم أنت حنون!

زعق التاجر بوجهه:

ـ خسارتي بموتها أكثر من مليون ليرة وتريدني ألا أهتم بوليدها؟

انتبهت الممرضة لحديثهما، ولفرط مللها سألت "الموك" بتروٍّ:

ـ إن أسعارك غالية!

حوَّل عينيه نحوها، بلَّل شفتيه ببعضهما البعض، ثم أجابها بلطف:

ـ إنه الدولار يا ليرة، لكن "إلك ببلاش".

نظر الشاب إليه وقاطعهما:

ـ وإليَّ؟

أجابه بنزق:

ـ بواحد وربع.

تدخلت الممرضة مجددًا:

ـ هل هي بقرة حلوة؟

أجابها بلهجة حورانية:

ـ مش أحلى من عيونك.

شيئًا فشيئًا أدرك الشاب أنه تم إقصاؤه من الصفقة، وأخذ – مثلي – يراقب حديثهما.

سأل الموك الممرضة وقد اقترب نحوها بكرسي:

ـ أتعرفين ما هو أجمل من الأبقار والعجول يا دكتورة؟

أجابته بغنج:

ـ ما هو؟

ـ الأبقار والعجول.

ضحكت ثم قالت بإطراء:

ـ يبدو أنك مثقف طريف.

أعجبه ذاك الوصف؛ لذا استرسل في حديثه معها:

- أنا أحب مهنتي، الحياة علَّمتني ذلك، فأنا رجل عصامي، لقد سرق المسلحون كل ما أملك، ومع ذلك لم أستسلم، قلت لهم بالفم الملآن: "أنتم على خطأ"، كما أنَّ تجارة العجول في دمي، لم أرثها من أحد، لكنني أحببتها. لديَّ سؤال لكِ: ماذا لو وضع أحدهم أمامك بقرة وعجلًا؟ ماذا ستختارين؟

أجابت في تفكير:

- ممم، بقرة؛ إنَّها ألطف من العجل.

ابتسم لها وقال:

- هذا يعني أنكِ تحبين البقرة لا العجل.

دخلا في جدال حي ورومانسي لقرابة الساعة، لعنَّا خلالها أميركا والدولار وحلف الناتو والاتحاد الأوروبي والحرب وبائع الدخان في الحارة. وحين طال انتظاري الطبيب غادرت العيادة، محاولًا في سري معرفة سبب كل هذا الحب لمهنته؛ لذا أخرجت من جيبي دفتر ملاحظات صغيرًا، دونت فيه عبارته التي قد لا يعي معناها سوى تاجر عجول آخر: "ما هو أجمل من الأبقار والعجول؟ الأبقار والعجول".

حديث ما بعد ليلة عاصفة

ليس صباح الأمس بالجيد كفاية، حبات الصقيع الباردة تتكسر على الوجوه تاركة خلفها جوًّا مشحونًا بالعصبية، الوجوه هي هي كل يوم، لا تتغير، مخرشة، ومنذ بدأت الحرب تمارس التغابي واليتم عن سابق إصرار.

الكل حول بيتي خرج يرتدي جزمته، يتفقد ما خلَّفته العاصفة من دمار وخراب، وأنا مثلهم تسلقت سطح منزلي حتى أعيد إصلاح ما دمرته الريح لشبكة النت الخاصة بي.

"عقلة" صاحب الدكان الوحيد في حيِّنا، يرفع غلق محله ويكشط أرضيته وهو يتلفَّت حوله كالملسوع لعله يلتقط أحدًا يكلمه كما هي العادة كل يوم، فأصحاب المحال التجارية في قريتي – مثل سفسطائيي القرون الوسطى – يمتهنون الكلام بحذق، ودكانه أشبه ما يكون بمركز إعلامي يجتمع فيه كل أنواع البشر لتناقل الأخبار أثناء تبضعهم، من طلاب المدارس، وأعضاء المجالس المحلية، وموظفي المنظمات الإنسانية، ونازحين، ونسوة، ورجال الدين، وحتى موظفي الحكومة ومن لف لفيفهم.

ولمثل هذه الظروف أستعين به؛ إذ لا أجدني مضطرًّا لأفتح التلفاز أو أبحث عن أخبار القرية عبر الإنترنت في حال تعطلت شبكتي؛ فصوته يملأ الأرجاء أثناء الحديث، يكفيني الجلوس أمام منزلي لأفهم تفاصيل اليوم كاملًا (مَن تزوج.. من طلَّق.. من قُتل.. ومن هاجر)، حتى إنه يعرف جميع النسوة الحوامل هنا، وعدد شهور وضعهنَّ لحملهنَّ، هو ثورة إعلامية بحد ذاته. لا أعرف كيف أستثمر مواهبه الإعلامية والاجتماعية.

أما "هندية" - وقد سميت بذلك لوجود دائرة وحميَّة حمراء بين عينيها حين ولادتها مثل نسوة نجوم بوليوود، لكنها اختفت مع استمرار بشرتها بالسمرة جراء تعب السنين السالفة -، فهي الأخرى مشهورة بكثرة أحلامها؛ لطالما حلمت بأعراس في حيِّنا لتتوالى الأتراح والمآتم بعد ذلك؛ لهذا كل من يحلم بها يلتزم الصمت ولا يخبر أحدًا، من ثم يرتدي قميصه أو ثوبه بالمقلوب لمدة ثلاثة أيام، وهي عادة لطرد النحس تم اتباعها في قريتي منذ القديم. وحين يفعل الشخص ذلك في حيِّنا، نعرف أنه رأى "هندية" في منامه.

دكَّت ساقيها في جزمتها، وقد ربطت طرف ثوبها بخصرها المعفَّر بالوحل والطين، تجرُّ على الطريق جذع شجرة قصفته الريح العاصفة ليلة أمس، علَّها به تصنع شيئًا من الطعام لأطفالها. ما إن تراني حتى تلوِّح بيدها لي من بعيد لتصرخ بعدها:

- مرحبا جار، زمان هالقمر ما بان.

أرد عليها تحيتها بتواضع، ثم تكمل صباحها لتسألني عمَّا جرى ليلة أمس، دون أن تفصح أكثر؛ حيث تسألني ثم تومئ برأسها بحركة خفيفة لجهة الجنوب، فأفهم أنها تقصد بسؤالها رغبتها في معرفة هل قُتل أو تأذى أحد بآخر المعارك التي جرت على أطراف القرية بين كتائب المعارضة المسلحة وداعش؛ لهذا أزمُّ فمي وأرفع يديَّ في الهواء لأوضِّح لها عدم علمي بشيء. تصمت ولسان حالها: "يلعن الحرب ألف مرة".

يسمع "عقلة" كل ذلك، تنتفخ عيناه لتجاهلنا له في الحديث، ومن ثم ينبري في حديث طويل يسرد خلاله تفاصيل القرية كاملة، وما جرى ليلة أمس.

في هذه الأثناء يمر أبو أدهم، خمسيني أسمر نحيف، بعنق قصير لا يورث سوى حركة سريعة لرأس في وجهه خمسة ثقوب وحفرة، يرتدي بدلة رسمية وربطة عنق على الدوام، على خلاف السراويل العريضة والجزمات التي يحبذ فلَّاحو قريتي ارتداءها دائمًا.

يُسر كثيرًا حين يقول له أحدهم إنه المحامي الوحيد في قريتنا، كما أنه يتفاخر في جميع المناسبات بأنه الوحيد الذي زاول مهنته في المحاماة هنا.

أقترب منه، يمسك بيدي ويجرني إلى مكان بعيد عن الجميع، وكعادته التي حفظتها عن ظهر قلب، يبدأ حديثه ببادئته المعتادة: "نحن – المثقفين – نفهم بعضنا البعض، لا تشغل وقتك بالحديث

مع الرعاع، هه هه هه، هل فهمت؟ اجعل حديثك موزونًا وبحكمة، ولا تناقش هؤلاء المتخلفين، «ومن يُؤتَ الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا». كرر ذلك".

أردد خلفه:

- ومن يُؤتَ الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا.
- كررها أيضًا.
- ومن يُؤتَ الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا.
- تمام. تذكر هذه الآية دائمًا.

ثم – وكما العادة أيضًا – يكمل:

- ما هي آخر كتاباتك؟ اكتب شيئًا عن الرعاع، اسمع كلامي ولن تندم، اكتب كيف دمروا مستقبلنا وأوصلونا لهذا الحال، اكتب عن المتخلفين ولا تأخذك بالحق لومة لائم هه.. هه. لومة ماذا؟
- لومة لائم.
- لومة ماذا؟
- لومة لائم.
- كم تعطيني من ١٠ على هذه النصائح؟
- ١١ من ١٠.

ـ أنت خطير، وكل يوم أكتشف فيك شيئًا جديدًا. لهذا السبب تعالَ لنتناقش في منزلك ونشرب شايًا لربع ساعة فقط، فأنا مستعجل؛ لأني أعرف أنك تحب حديثي.

وبما أني أعرفه جيدًا، وأعرف حديثه وأن الربع ساعة ستجر معها ساعات وربما نهارًا كاملًا، قلت له بجديَّة:

ـ سأزعل منك، اليوم الجمعة، «الصلاة يا عباد الله» (قلتها بلهجة قرشية)، الصلاة ماذا؟

ثم ردد خلفي:

ـ يا عباد الله.

ـ الصلاة ماذا؟

ـ يا عباد الله.

ـ كم تعطيني من ١٠؟

ـ ١٠ من ١٠ هه هه هه.

صديقي هاري بوتر

أذيع ذاك المساء في محطة عربية فيلم "هاري بوتر والأمير الهجين" للمخرج ديفيد ياتس (الصادر عام ٢٠٠٩). كان الجو لديَّ مهيئًا لحضور فيلم؛ زوجة تتجهز للامتحان، وطفل مشاغب ينام مع جدته، وتيار كهربائي مستمر في العطاء منذ يومين دون تقنين حكومي؛ فماذا يرغب زوج مثلي أكثر من هذا الهدوء للاستمتاع بإحدى روائع "ج. ك. رولينج" في جزئها السادس؟!

ما إن ظهر بطل الفيلم حتى زحفت على ركبتيَّ إلى التلفاز؛ لأتأكد عن قرب هل عيناي الجميلتان تكذبان كما العادة أم إنه هو.

هل يعقل أن يكون هو؟!

لا أعتقد؛ فهذا رشيق.

لربما هو.

يا لعينيَّ التعبتين!

أقترب أكثر. لا، إنه "هاري بوتر"، أما من تخيلته فهو صديقي القديم، والذي يستحق أن أسميه "هاري نعمتي" طوال سنِي الجامعة. أقصر من "بوتر" بقليل، ويلبس نظارة طبية سميكة، وحين تركته بعد التخرج كان يربي كرشًا صغيرًا.

أنا على يقين أنه لو كان معي الآن وأخبرته أني لكم أشتاق له ولأيام خلت، فسيقول لي بفطنة شمالية: "من الطبيعي أن يفكر الجنوبيون بالطعام". نعم، إنه طعام، شهي مثل معروك أمي.

كان دائمًا يقول لي نصائح لطيفة بطريقة عنيفة، ما جعل زمالتي له في السكن الجامعي في منطقة مقطوعة على أطراف دمشق كمن يجاور خلية نحل، مفيدة للصحة لكنها لاذعة.

من فوائده أنه قدم لي ذات مرة نصيحته من أجل ترفيع مادة "العلاقات الدولية" بمعدل جيد، أخبرني بسرية تامة أن رفيقًا يمنيًّا في الكتلة (أ) جلب معه كمية جيدة من القات Catha edulis، وأنه تمكن من ترفيع مواده بشكل جيد بفعل تلك النبتة.

بقي على الامتحان أقل من ١٢ ساعة، ارتديت قميصي العنابي الذي يجلب الحظ، ثم قمت بزيارة ذاك الرفيق الحضرمي.

(السكن الجامعي – الكتلة (أ) – الطابق (٢) – الغرفة (١٧))، أذكر العنوان بتفاصيله الدقيقة، لربما هو الشيء الوحيد الذي أذكره من تلك الليلة.

استقبلني "فؤاد" بكرم طائي، وقد انتفخ أحد شدقيه، حنطي مربوع، يرتدي قميصًا داخليًّا أبيض، ويلف قسمه السفلي بمعوز حضرمي. كانت غرفته تعج بالضيوف، نوافذ الغرفة مغلقة، وتطفو فوق الرؤوس كتل من دخان السجائر والأرجيلة. سألته بصوت منخفض وسريع:

- هل يوجد لديك..؟

ثم جررت أنفي على قفا راحة يدي وغمزته بطرف عيني، ضحك وصاح مرحِّبًا: "يا أهلًا بالديوان". الديوان في اليمن مصطلح يطلق على المكان الذي يجتمع به الشبان لمضغ القات، هذا ما علمته بعد تلك الليلة.

مضت ساعة وهو يعرِّفني على رفاقه، وساعة أخرى لتناول المندي والهفيت معهم، وساعة ثالثة لشرب الشاي ولعب ورق الشدة. بعدها عاودت جر أنفي من جديد وغمزته، فصاح مرة أخرى: "يا أهلًا بالديوان"، ثم سألني بحب:

- قات؟

- قات، نعم يا ملعون.

كان فؤاد ساحرًا في حديثه معي، كان يدخل الرأس كالنعاس؛ لذا سألته بإدمان إن كان من الجيد تناول كمية جيدة قبل الامتحان، أخبرني بحنو أني حين (أخزِّن) - أي أبدأ بالمضغ - سيتضاعف الذكاء وسأتمكن من الحفظ لأضعاف، وما يتم حفظه في ساعة فسيصبح لديَّ في دقيقة.

يا رب السماء! من أي سماء مباركة سقط عليَّ هذا الصديق؟ فقد جعلت كلماته تلك عينيَّ نصف مغمضتين، ثم فكرت بسوء حين قررت أن أمضغ كمية أكبر؛ لعلِّي أحصل على نتيجة أفضل من شريكي في السكن، وبذلك أتخايل عليه.

وبحماسة استعرت طاولة فؤاد وسريره للتخزين والدراسة، فغدًا عند الثامنة صباحًا سيكون امتحاني ولن أنام. قمت بمضغ كمية قليلة من ورق القات المجروش مثل النعنع اليابس. مرت دقائق لكن لا نتيجة، قمت بشرب بعض الماء فتم ابتلاع تلك الكمية، فأخذت عوضًا عنها كمية أكبر.

فقط هذا ما أذكره من تلك الليلة المباركة، وما أذكره – خير اللهم اجعله خيرًا – أن أحدهم أخذ يطبطب برفق على خدي:

ـ أخ جوهر.. أخي، أتسمعني؟

بدأ مفعول الكاثينون يتحرر في رأسي، يتجمع ثم ينفلت كتعب على عينيَّ، فسألته بكسل:

ـ من أنت؟ وكم الساعة؟

ـ أنا فؤاد. إنها الحادية عشرة صباحًا.

صاحت روحي المحبوسة داخل هذا الجسد المخدر:

ـ يا أهلًا بالديوان!

كلُّه من ترامب

قد يكذب المرء بسهولة على زوجته في ساعة حميمية، ولربما يستطيع فعل الأمر عينه أمام العدو، أو حتى على موظفي الإحصاءات الحكومية، لكن من الصعب أن يمرر طفل في الثالثة أيمانك المغلَّظة حين تحلف له أن لا بيض لديك في هذه الساعة المتأخرة.

فعند صلاة الفجر أيقظني ولدي باكيًا يريد بيضًا، الحمد لله أنه لم يطلب بطيخًا في هذا الجو الكانوني البارد كما في الليالي الفائتة. ومع ذلك، فهو ليس بالمطلب الهيِّن، فلسوء الطالع إن الثلاجة فارغة، وصاحب الدكان الوحيد في الحي لن يفتح دكانه حتى العاشرة، ودجاجاتي مذ تم تطبيق العقوبات الأمريكية على البلاد ما عدنَ يلقينَ بيوضهنَّ في الخُمِّ بسلاسة.

لهذا – وأمام عناده في هذا الوقت – سريت كخفافيش الظلام إلى جارتي "هندية"، فلديها دجاجات لسنَ حساسات مثل دجاجاتي، ولا يتأثرن بالوضع السياسي للبلاد. لربما لهذا السبب يكثر الطلب على شراء دجاجها. فقبل شهر نصحتني أن أشتري منها فرختين، قالت لي إن حظَّها جيد في تدجين الطيور. بالفعل

قمت مسحورًا بحديثها بشراء إوزتين من فصيلة الإوز الثرثار، لهما منقاران مُفلطحان، ورقبتان طويلتان، وريش طارد للماء، ما جعلني أصنع لهما بركة ماء صغيرة وخُمًّا واسعًا ومرتفعًا، سقفته بأعواد القصب، وفرشت أرضيته بالتبن كي تفقسا بيوضهما في موعدها – كما علَّمتني جارتي –. في اليوم التالي حين استيقظت، كان الثعلب قد لوى عنق إحداهما وهرب، في حين سرق صبيان الحي الإوزة اليتيمة الأخرى.

المزعج في القضية أنه في هذا الصباح باعت لي هذه الجارة الحنونة البيضة الواحدة بـ ٧٥ ليرة، وبلا أي مراعاة أو تعويض لمشاعري عن خسارتي للإوزتين. وحين سألتها عن سبب احتيالها عليَّ بهذا السعر، ردَّت بتظلُّم: "إنه الدولار"! لعن الله الحصار، حتى مؤخرة الدجاجة لم تفلت منه.

لقد كان نهارًا سيئًا من طالعه، هي دقائق حتى اتصل بي صهري؛ إذ تقول القاعدة إنه يحق للصهر الاتصال في أي وقت؛ لهذا يسمى الصهر صهرًا، لأنه ينصهر ويذوب كالحديد في عائلة الزوجة. آه، ليتني أنصهر وأتبخر حين يطلبني هذا الصهر في هذا الوقت المتأخر.

أخبرني أن لديه مصلحة معي، وسيزورني لنتدارسها، ثم أغلق هاتفه قائلًا بلهجة الأمر: "لا تخرج من البيت". صحيح أنه رجل طيب، إلا أنني أحفظه صمًّا، أنا متأكد أنه سيعرض عليَّ – رغمًا عني – أن أكون شريكه في أحد مشاريعه الاستثنائية كما العادة.

لربما لديه إشارة أو طلسم من حقب قديمة ويبغي أن نحفرها معًا، فهي مصلحة تستهويه رغم أنه لم يجد يومًا فلسًا واحدًا. ومن يدري؟ لربما يريدني أن أشاركه في زراعة الفستق أو الفراولة أو أي محصول لا تقبله أرض الجنوب أو لم يسبقه أحد في زراعته من قبل، فالأصالة في أعماله قد لا تجدها عند شخص آخر.

انتظرته لساعات بعد الموعد المحدد؛ إذ تقول القاعدة الأخرى: "يحق للصهر ما لا يحق لغيره، فإن تأخر أو حتى لم يأتِ لموعده فهو معذور". لكنه جاء متأخرًا، وقد أجاب عن كل تكهناتي السابقة حين قال بنشاط:

ـ لا شيء مهم، كل شيء تمام، كل شيء روعة، كل ما في الأمر أني أريد أن أشتري بقرة.

ـ بقرة يا صهر؟!

ـ نعم، بقرة.

ـ بقرة يا صهر؟!

ـ نعم، بقرة. هل أنا أصغر من أن أشتري بقرة؟!

ـ هل وجدت كنزًا؟

ـ أقول لك بقرة، وليس سيارة.

ـ لعلَّك أخذت قرضًا إذًا.

ـ قرضًا؟! إن الحكومة تحتاج من يُقرضها، طبعًا لا.

ـ إذًا، سرقت أحدًا؟

- وهل تريدني أن أسرق بنطال "كريِّم" الوردي مثلًا؟

(للتوضيح، "كريِّم" هو شاب في البلدة يشتهر ببناطيله الوردية).

- إن لم يكن كذلك، فمن أين لك ثمن البقرة؟ فأنا أعرف حالك جيدًا؛ إن دخلت الفأرة منزلك خرجت مصابة بسوء تغذية.

- لا تخشَ شيئًا. معي ما يكفي لشراء بقرة ووليدها أيضًا. أتعتقد أني رجل سهل؟

ابتسم حتى وصلت ابتسامته لأذنيه. ثم انطلقنا لأحد الأشخاص في البلدة، قيل إنه عرض بقرته للبيع بسعر زهيد. كان رجلًا مغرورًا جدًّا، أخبرناه نيتنا في الشراء، ولشدة غروره كنا نسحب الكلمات منه سحبًا:

- لديَّ اقتراح أيها التاجر، لِمَ لا ننام قليلًا وحين نستيقظ تكون قد أجبت عن سؤالنا؟

نكزت صهري بكوع يدي كي لا يتمادى أكثر في السخرية من صاحب البقرة. نظر إلينا ثم بصق من فرجتي أسنانه على الأرض، وساقنا لزريبته دون أن يقول حرفًا، كانت الزريبة خالية إلا من بقرة واحدة، ناحلة ومدعوكة بالزبل والطين حتى برزت عظام قفصها الصدري. قال صهري ساخرًا:

- إننا نرغب في شراء بقرة، وليس حمار دونكيشوت، سيدي.

ـ هذا الموجود، لن تجد بقرة رخيصة مثل هذه البقرة في السوق كله، لقد سامها عشرة تجار ولم أبعها.

ـ أخيرًا نطق، أقسم بالله الذي خلق هذه البقرة الميتة لقد ظننتك أخرس.. يبدو أنها بقرة مسلمة؛ هل هي صائمة حتى جف جلدها هكذا؟

قال صاحب البقرة:

ـ ارتفع سعر كيلو العلف أضعافًا، لو عندي قدرة لشراء علفها فما كنت عرضتها للبيع.

أخذني صهري على جنب:

ـ أفكر أن أشتريها. صحيح أنها قد تموت لمجرد أن تعطس، وأنني إن قررت ذبحها فقد لا تكفي أختك على الفطور، لكني أرى يا أبا النسب أنه بفرق السعر بإمكاني أن أشتري معها بقرة صغيرة.

استدار نحوه صهري سائلًا:

ـ وكم ثمن هذه الميتة يا معلم؟

ـ كما طلبت من التاجر الذي قبلكما.

ـ وكم طلبت من التاجر الذي قبلنا؟

ـ كما طلبت من التاجر الذي قبله.

ـ لا حول ولا قوة. وكم طلبت من التاجر الذي قبل قبله؟

ـ كما طلبت...

قاطعه صهري بانفعال:

ـ يووه! خلِّصني وأخبرني، كم ثمنها يا رجل؟ لديَّ أعمال.

ضحك الرجل بلا رغبة:

ـ هذا أسلوب التجارة، لا عليك يا كدر، لقد دفعوا لي بها مليونًا ومئتي ألف، ولم أبِع.

أصيب صهري بكل أنواع الصدمات النفسية، فتح فمه ثم صاح بصوته مخنوقًا:

ـ يا ربي! ماذا يقول هذا الرجل؟! هل هذا الحمار الميت بهذا السعر؟!

ثم اقترب نحو البقرة واحتضنها، وحاول حملها بعصبية حتى امتلأ قميصه بالطين:

ـ إنك تمازحني، أليس كذلك؟

رفع البائع حاجبيه:

ـ هأ!

ـ بربك هل تستحق هذه الجثة مليون ليرة؟!

صوَّب البائع كلماته بهدوء:

ـ ومئتي ألف.

سحبت صهري ثم وشوشته:

ـ بكم كنت تتوقع أن تشتري بقرة؟

قال وقد رشح أنفه من هول الصدمة:

- مئتي ألف يا نسيبي.
- يا لمصيبتي!

قلت للبائع:

- إنه مبلغ كبير.
- أنا قلت إن التجار دفعوا لي مليونًا ومئتي ألف ولم أبِع، ثمنها مليون ونصف ليرة سورية لا غير.

اقترب صهري نحوي كمن يريد البكاء:

- هل عيناي دامعتان؟
- نعم.
- هل تؤلمانني؟

قلت:

- بشدة.

ثم عاد في حديثه للتاجر:

- اتقِ الله يا رجل بهذه البهيمة وحررها.
- هات مليونًا ونصفًا وحررها، هل كنت تعيش في كهف قبل أن تفكر في الشراء؟! الدولار اليوم يزيد على الألف، اذهب واشترِ دجاجتين وقم بحلبهما إذًا.

غادرنا المكان. في الطريق دأب صهري يندب حظه:

- سأخبرك بسر.

ـ تفضل.

ـ إن عدت للمنزل من دون بقرة، فستحلبني أختك من دون شك. أريد أن تتصل بها وتخبرها أن الدولار هو السبب، أخبرها أن "ترامب" دمَّر حياتي..

سكت ثم حوَّل عينيه نحوي:

هل عيناي دامعتان؟

ـ يعني.

ـ هل لونهما أحمر؟

ـ يعني.

ـ هل تؤلمانني؟

ـ يبدو ذلك.

ـ كله من ترامب، كله من ترامب.

قبل الوصول إلى المنزل صرخ فيَّ ابني من بعيد:

ـ هل أحضرت لي موزًا أحمر؟

توقفت عن المسير، وقفت أمام صهري، سألته:

ـ هل عيناي حمراوان؟

ـ يعني.

ـ هل تؤلمانني؟

ـ يبدو كذلك.

ثم صرخنا معًا كنسوة آيسهن الحيض: "كله من ترامب".

رحلة

لم يكتفِ بالاتصال بي، إنما جاء لمنزلي كي يُفصح عن نيته جمع الأصدقاء مرة أخرى في رحلة، جلس على الكرسي وقد شبك يديه أمامه مثل يدَي "مايك فغالي" الخشبيتين في ليلة رأس السنة، ثم أسرع في حديثه قاطعًا الطريق أمام أي اعتراض قد أتلفَّظ به:

- سأرتب كل شيء، سنأخذ سيارة مكشوفة، أو نذهب على الدراجات النارية، فلا داعي للقلق.

وكشخص يعاني من متلازمة سوبايت Sopite syndrome، أُدرِكُ تمامًا أن كلماته تلك لم تأتِ عبثًا، ففي المشوار الأخير كانت السيارة التي أقلَّتنا مغلقة، وكان المكيِّف فيها معطَّلًا، وكانت الرحلة مدمِّرة لنفسيتي؛ لهذا جاء جوابه ذاك جاهزًا. إذ حملتُ حينها الأغراض ولعبتُ ورق الشدَّة بخسارة، وتجادلنا في تاريخية المكان الذي نزلنا به، وعن معركة اليرموك أشهر المعارك الإسلامية التي قادها القائد الإسلامي خالد بن الوليد في تلك المنطقة سنة ٦٣٦ ميلادية، بعدها طلبوا مني أن أحدثهم عن أول رحلة في حياتي، ففي

كل مشوار يطلبون مني أن أقص تلك الحكاية رغم أن كل شيء بها كان مؤلمًا ولا يدعو للضحك.

لهذا سأحدثكم عنها للمرة الأخيرة:

حدث ذلك في النصف الثاني من التسعينيات، كنت حينها في مرحلتي الابتدائية. وفي ذاك اليوم، وبما أني أقصر طالب في الصف، وقفت في مقدمة الطابور في باحة المدرسة. وحين انتهينا من ترديد النشيد الوطني، ذرع أمين السر الباحة أمامنا جيئةً وذهابًا، واضعًا يديه في جيبيه وقد غصَّت أذناه وأنفه بالشعر النافر، قال بصوت جهوري:

- غدًا سنذهب رحلة، سنرى مدينة بصرى الأثرية وشلالات تل شهاب الرائعة، وسندخل حديقة الحيوان، وسنرى هناك الغزال. من يرغب في رؤية الغزال يا طلاب؟

صاح الجميع:

- نحن.
- إذًا فليجلب كل واحد منكم معه غدًا ٧٥ ليرة.

الغزال، كم أحلم برؤيته! طوال الطريق للمنزل وأنا أتخيَّل شكله، عينيه، قرنيه، أذنيه. يا إلهي! كم سيكون جميلًا! أسرعت راكضًا للمنزل، رميت حقيبتي على الأرض ورحت أبحث عن أمي بفرحة عارمة، كانت أختي في المطبخ، قلت لها وفي نيتي الإغاظة:

ـ غدًا سأذهب رحلة.. نتناه.. وسأرى الغزال يا مسكينة، نتناه، لكني أريد ٧٥ ليرة.

لكنها لا تصغي لما أقول، فسكوتها ذاك يغيظني، ذهبت إلى أخي الأكبر، يشاهد هو الآخر بانسجام مباراة لكرة القدم:

ـ غدًا سأرى الغزال، سوف تذهب المدرسة رحلة، فقط بـ ٧٥ ليرة، يا بلاش..

كان حذاؤه أسرع في إجابتي. في تلك اللحظات تدخل نبع الحنان، متعبة من مشوار في الحي:

ـ أمي، أريد ٧٥ ليرة، أريد أن أرى الغزال، وسنذهب رحلة غدًا.

يا إلهي! هل اختفيت حتى لا يسمعني أحد؟! مرَّت أمامي نحو المطبخ دون أن تلقي بالًا لحديثي، عندها صرخت ملء فمي وسط المنزل: "أريد.. أن.. أرى.. الغزال".

اقتربت أمي نحوي، فمذ عرفتها ولديها فلسفة خاصة في هذه الحياة، طلبت مني بحنو أن أذهب للزريبة وأن أراقب بقراتنا حتى أشبع من رؤيتهن، فهنَّ يشبهن الغزال، لكنه أنحف قليلًا وله قرون ولونه بني، ثم ختمت حديثها بالقول: "ليش البعزقة؟".

هنا عدت لأسلوبي القديم – دائمًا يجبرونني على فعل ذلك –، انبطحت على باب المنزل ورحت أتلبَّط الأرض مرددًا طوال النهار:

ـ أريد أن أرى الغزال... الغزال أريد أن أراه... أرى الغزال أريد..

وهكذا حتى حلَّ المساء، خلال ذلك كانت الحياة تجري طبيعية في المكان، أخي يعبر الباب من فوقي مكملًا طريقه بلا أي اعتبار، أختي تجرُّني عن الباب لتمسح المكان ثم تعيدني لمكاني وتكمل هي تنظيفها للمنزل، أمي تأكل حبات فول أخضر وترمي بقشورها في السلة الواقعة بجانب رأسي.. ومع ذلك واصلت نضالي؛ فالقضية تستحق مني التضحية.

عند المساء تم منحي الـ ٧٥ ليرة بإكراه. لهذا خذ هذه النصيحة – عزيزي القارئ –، غالبًا المعنيون بأمرك لا يلتفتون لمطالبك إن لم تتلبَّط وتصرخ أمامهم نائحًا، والأهم أن عليك أن تنقَّ في مطالبك بإزعاج، فالذين لا ينقُّون يموتون، فاعلم أن البعض منهم في المطبخ يطبخ شيئًا ما وغير مهتم لمطالبك، وهناك آخرون لاهون في رهان رياضي ما ولا تعنيهم روحك الرياضية. لكن في كل إدارة هناك شخص جيد ودبلوماسي، وسيحاول في البدء أن يكون مثلهم ويوجه مطالبك لمكان آخر، لكنه سيلبي مطالبك في النهاية لأنه يرغب في أن يتوقف صراخك كي يتمكن من النوم. فإن التزم أحدهم الصمت فاعلم أنه مغتاظ منك، وإن ضربك بحذائه فاحمله بلطف وأعده إليه بلطف، وعاود الكرَّة بأدب. من هنا يمكن الجزم أن ذلك هو غاية الإعلام الوطني اليوم.

يوم الرحلة

في صباح اليوم التالي ذهبت إلى المدرسة باكرًا، كنت أول الواصلين وأول من يسجل اسمه في الرحلة. كانت المدرسة قد تعاقدت

في تلك الرحلة مع ميكروباص "أبو عنتر" الأخضر، وهو ميكرو القرية الوحيد، كان قديمًا، يدلف سقفه وقت الشتاء، ويعمي عينيك الغبار المندفع من نوافذه المحطَّمة في الصيف. ومن مجموع نوافذه قد تجد نافذتين أو ثلاثة فقط صالحة للاستعمال، كما أنه لا يملك بابًا، في حين خلع صاحبه عن قصد باب السائق ليتمكن من الولوج إليه، فما لا تعرفه أن "أبو عنتر" يحتاج إلى شخصين ليقوما بدفعه لتتمكن مؤخرته من الوصول خلف المقود، وذلك لضخامة جثته.

أسرعتُ لأحجز مكاني في المقعد الأخير لأجلس قرب النافذة، لكنني لم أصل، فجميع الطلاب حجزوا الكراسي القريبة من النوافذ، ولم يبقَ سوى الكرسي الواقع خلف السائق، وهو كرسي ابتدعه أبو عنتر في هذا المكان ليكسب راكبًا إضافيًّا، فهو مكان مخصص كغطاء لمحرك هذه الخردة التي نركبها؛ لهذا أجدني طوال الطريق وأنا أنطُّ فوقه كالنابض.

وما إن مضت نصف ساعة، حتى لازمتني الدوخة، والتعرُّق، فالغثيان وعدم الراحة، وشيئًا فشيئًا أخذت عصارة حلقي تسلك طريقها نحو فمي. أشرتُ بتكلُّف وبعينين محمرَّتين إلى السائق للتوقف لرغبتي في التقيؤ، لكنه لم يعِ ما أردته. ما هي إلا ثوانٍ حتى كانت الفاجعة، تقيأت على قميص السائق، وعلى بنطال أمين السر، وعلى مدرس الصف السادس، وعلى تنورة الآنسة الجميلة "نعمة"، وعلى كندرة المُدرسة الأنيقة "رجاء"، وعلى الوردة الحمراء التي كان يحملها المدرس الرومانسي "شيحان"، وعلى الكراسي وعلى

النوافذ، وعلى الطالبات والطلاب فردًا فردًا، لكنني لم أتقيأ على نفسي، فأنا أسمع نصائح أمي بعدم إهمال ملابسي.

أعاني منذ الصغر وحتى الآن من دوار الحركة Motion sickness؛ لهذا ما إن انتهيت من الجميع حتى أُصبت بالإرهاق والتعب كأحد أعراض متلازمة سوبايت Sopite syndrome، فسقطت بلا وعي في حضن المُدرس الرومانسي مغمًى عليَّ.

ما هي إلا دقائق –أو هذا ما خيِّل ل – حتى اقترب مني المدرس الرومانسي، نهض غرَّته خلف أذنه، ثم قال لي بهدوئه المعتاد:

- حبيبي، لقد وصلنا، هيا انزل.

كنت نائمًا على الكرسي الأخير، وكان الميكرو خاليًا إلا مني ومن السائق وهذا المدرِّس اللطيف. وقبل أن أترجَّل منه، صُدمت عيناي من كل هذا الخراب الذي صنعته معدتي بالمكان. قلت في نفسي: "عادي، يحصل أن يتقيأ المرء في الرحلة"؛ لهذا ترجَّلت من باب الحافلة لأرى الغزال، لكن سرعان ما تركني السائق والمدرس وهربا بالميكرو، فجأة جالت عيناي في المكان، وإذ بي أمام المنزل.

طوال أسبوع كامل وأنا أحدِّث أمي عن آثار مدينة بصرى الرائعة، وكم هي جميلة شلالات تل شهاب، وطوال شهر وأنا أغيظ أختي في حديثي عن شكل الغزال الذي كان مدهشًا، لكن إلى اليوم لا تعلم أختي أني لم أرَ الغزال إلا في "ناشيونال جيوغرافيك".

زكزكة[1]

لا أعلم – عزيزي القارئ – إن كان عن إقرار أو غير إقرار أن يقول الشامي عن القلم: "ألم"، أو أن يطلق أبناء المدن المتوسطة – ما دون المجتمع المفيد – كلمة قلم لكل فتاة ممشوقة القدِّ والقوام.

لكنني أكاد أجزم أنه لأمر مدروس بعناية أن يلفظ القلم في بلدتي بلهجة محلية ثقيلة، حيث حرف القاف يلفظ كما تلفظ الجيم المصرية مع بعض الإضافات التي تخرّش معناها وتجعله أقرب ما يكون لمخلّفات ألغام أو مفخخة لداعش. فما إن يقولها أحدهم حتى تفعل نهايات الأعصاب في وجهه فعلها، فتتكشف الأنياب، فيبدو القائل مثل انغماسي ضغط على الزناد ليريك ما في أمعائه من مخلفات. ولربما لهذا السبب خرجت داعش من رحم البادية، حيث الصحراء لا تعرف المجاملة.

(1) زكزكة: كلمة محلية في بلاد الشام، تُستعمل في السياسة للسخرية من التصريحات والوعود السياسية المتناقضة لتبقى مجرد كلمات فارغة لا معنى لها.

ولربما لهذا السبب أيضًا تركتُ القلم منذ مدة حتى بلغ تقصيري في العمل مبلغه، فإدارة التحرير على لطافتها معي لربما لا تدرك أن اللطافة أحيانًا تكون أسوأ عقاب، وهذا ما تعلمته خلال مزاولة مهنة الصحافة.

لهذا استيقظت اليوم باكرًا، أديت صلاة الفجر، ثم أكملت رياضتي بالهرولة حول البيت؛ لعل برنارد شو يكون صادقًا هذه المرة معي في رؤيته حول أجمل الأفكار التي تأتينا ونحن نمشي.

لهذا سأروي لكم حكاية، حكاية يومي هذا، ولمرة واحدة فقط.

ابن أخي يعاني من متلازمة نفسية تحوَّلت من عادة إلى وسواس قهري، فهو لا يبرح يومه وهو يراقب أنفه حتى كادت أن تحولَّ عيناه. وحين أسأله عن سبب مراقبته لأنفه طوال النهار، يجيب ببلاهة:

ـ أخاف أن يضيع.

أسأله مرة أخرى مصطنعًا الصبر:

ـ ما الذي سيضيع يا حبيبي؟

ـ أنفي، أنفي يا عمي.

أغمغم متنهدًا، ثم أسأله من جديد:

ـ وهل ضاع قبل ذلك؟

ـ يووه، حوالي أربع مرات، آخر مرة وجدته وحلفت ألا يضيع بعد اليوم.

أطبطب على كتفيه ولي رغبة بقضم أنفه، ثم وبعجز لا يجد لساني سوى الدعاء له ولوالده بالشفاء.

كالعادة أوصله إلى مدرسته متأخرًا، ليس لرغبتي أن ألقي التحية على رحاب مُدرِّسته الجميلة لتبتسم لي وتقدم لي شكايتها منه: "لا أريد أن يسيس كلامي"، وإنما لأني فقط أحبِّذ أن أختبر مقولة أندريه بريفو عن أفواه النساء في بلدتي حين يقول: "الفم: تارة برعم وردة، وطورًا بوز مرشة"، لكن لن أخبركم كم كان برعمها الشيطاني جميلًا.

اليوم كانت شكايتها مختلفة، حيث قالت لي بوجع: "ابن أخيك لديه حقد على أقلام رفاقه، فهو يقوم بكسر أقلامهم بلا سبب، وحين تسأله يقول: "ألعب. وهل اللعب ممنوع؟!"، أرجو أن تجدوا له حلًّا؛ فقد نفد صبري".

قالت ذلك ثم أطبقت الباب بوجهي بشيء من عصبية، ثم وقبل أن أدور برأسي للمغادرة أطلَّت من الباب مجددًا ثم صرخت بحدَّة أكبر: "إن هاجرت وتركت لكم هذه البلاد، فلن يكون بفعل الحرب، بل بفعل ابن أخيك"، ثم أطبقت الباب بقوة أكبر من سابقتها. لا أعرف حين يكون الحديث عن ابن أخي لِمَ يتحول فمها المبرعم إلى بوز مرشة بسرعة هكذا.

وكمراسل لطيف يتبع نصائح مديره، أقول في سري: "لربما هذه موهبة جديدة تضاف إلى مواهب ابن أخي".

لهذا اتجهت إلى ناظر المدرسة وأخبرته حكايتي، وسألته عن سبب عدم وجود مدرِّس إرشاد نفسي بالمدرسة، كان جوابه لطيفًا، ضحك ضحكًا من روحه، وكل ما قاله: "إلى أن ترسل لنا الحكومة مدرِّس لغة إنكليزية ومدرِّسًا للصف الأول والخامس والسادس، بعدها نفكر في رفع كتاب لمدرِّس دعم نفسي لابن أخيك".

ابتسمتُ ببلاهة؛ لأني لا أقوى على أكثر من ذلك حين يتعلق الأمر برغبات الحكومة والقيادة، فالقيادة أوسع نظرًا يا أخي؛ لذا وضعت يدي في يده وغادرته. وطوال الطريق وأنا أفكر في حل مع ابن أخي، ليس لرابطة العمومة والدم التي تجمعني به فقط، وإنما لأني مراسل يحفظ النصائح جيدًا، فأنا أحفظ جيدًا القواعد العامة لمهنتي، وكذلك نصائح مديري حين يلوِّح بإصبعه من خلف مجموعة العمل عبر الفيسبوك ليقول لمجموعة مراسلين من مختلف المحافظات: "لتكونوا صحفيين حقيقيين؛ لا تنقلوا فقط أوجاع ومشاكل الناس، بل حاولوا أن تكونوا جزءًا من حلِّها".

لربما لهذا السبب رغبت في كتابة هذه الكلمات اليوم، ولأقول إن الصحافة هي أن تروي الأشياء كما هي، لا كما ينبغي أن تكون. أقول ذلك ولي رغبة في تحوير ما قاله بول فاليري ذات مرة؛ لأن الذين يخشون ذلك، ويخشون القلم الساخر، «لا ثقة لهم بقوتهم، إنهم جبابرة كهرقل، يخشون "الزكزكة"».

الزوج طيب القلب

بعد ليلة كاملة الدسم والرومانسية، اقترب أكثر من زوجته وقد أغرق في دغدغتها وإضحاكها. في المشفى تهامس الطبيب مع المحقق بصوت خافت، ثم وقف المحقق فوق رأسها يقرأ التقرير الطبي وهو يقلِّب وريقاته برويَّة. بالقرب منه تسمَّر الزوج الطيب واضعًا يديه في جيبيه وما زالت آثار الدموع ترسم خطوطًا ناشفة على خديه المتوردين.

اقترب منه المحقق، وقد بانت على وجهه الأبيض البض ابتسامة مواساة:

ـ ما اسمك؟

ـ إبراهيم الخليل، سيدي.

ـ عمرك؟

ـ في الثانية والثلاثين.

ـ بماذا تقضي وقتك؟

ـ أعمل كاتبًا صحفيًا في مجلة "الوجه الآخر".

- والزوجة؟
- إيمان سلامة.
- ما هو عمرها؟
- تسعة وخمسون، وهي صاحبة المجلة التي أعمل بها.
- آها، جميل. أعرفها، إنها مجلة نسوية، أنا أيضًا أكتب في مجلة "الجندي العربي" ومجلة "جيش الشعب"، اللتين تصدرهما وزارة الدفاع. بالتأكيد أنت تعرفهما، فليس لشاب سوري انخرط في الجيش ألا يكون قد قرأهما. نحن زملاء إذًا، مع اختلاف في الرأي. هل يغضبك إن قلت إني لا أحبذ ما تطرحونه في مجلتكم؟ لا أعرف لِمَ تبالغون في مديحكم للنساء، ما تسمونه تحريرًا هو بطبيعته تثوير لها لنسف العلاقة الطيبة التي تربطها بالرجل، إنكم تمنحونها قيمة تدفعها للتمرد على زوجها وأخيها وأبيها، أنتم - النسويين - لستم منصفين. لست ضد المرأة، ولا أفكر في ذلك حتى، ولا أعتقد أن أحدًا له قدرة أو رغبة في فعل ذلك. لربما أنا فهمتكم بطريقة مغايرة، فما تكتبونه وتروجون له يقول لي إنه لترتقي المرأة لمرتبتنا، عليها التوقف عن طلي وجهها بالمساحيق، وأن تتأقلم مع صلعة صغيرة وشاربين عريضين وكرش ذي هيبة. أليس هو ذلك؟

لكن ألا ترى أنه لو مشى المجتمع خلف أفكاركم فسينقرض العنصر العربي بالتأكيد؟

وضع المحقق تقريره فوق ساقَي الزوجة الممددة على السرير، ثم أكمل بحدَّة:

ـ هناك حقيقة تتغاضون عنها وتؤكد صدق حديثي، إن من تطلقون عليهنَّ في مجلتكم اسم "النساء الكبار" في تاريخ بلادنا تَعايشن مع تلك الحقيقة حتى نِلنَ المجد والسمعة. أنا دائمًا أقول لزوجتي ذلك، فهي ليست عنصرًا دونيًّا نافقًا بلا قيمة، بل عليها أن تعترف أننا نحن المتفوقون بيولوجيًّا، وهذا وحده كافٍ لنزع هكذا اعتراف، ليس لشيء، وإنما كي نضع حدًّا لهذا النزاع غير ذي القيمة، أظن أن اعترافًا كهذا هو ما جعل علاقتي بزوجتي مميزة، ونلت معها سعادة مطلقة.

أحسَّ المحقق أنه بالغ في ثرثرته وحديثه خارج سياق القضية، توقف قليلًا ثم أكمل بإطراء:

ـ أنت رجل طيب يا هذا لتسمع كلامي وأنت في هذه الحالة العصيبة، وأعتقد أنكما عشتما ثلاثة أشهر جميلة مع بعضكما البعض رغم فارق السن. لكن لديَّ سؤال أخير: أليست زوجتك من تعرضت لثلاث محاولات اغتيال في بيتها خلال الشهرين الماضيين دون معرفة الجاني؟

- نعم، سيدي.
- أين كنت حين وقعت تلك الحوادث؟
- في الحمَّام، سيدي.

بانت على وجه المحقق ملامح التأسف، اقترب نحو الزوج، طبطب على كتفه:

- إن القدر منح أعداء زوجتك مطلبهم، فقدرك أن تكون أرملًا، وقدر زوجتك أن تموت من الضحك؛ لهذا سيتحتم عليك مسؤولية كبيرة في الدفاع عن قضيتها، وفي إدارة مجلتها وأموالها.

كيف يحتال الرجال على رمضان؟

في رمضان، إن أنواع الرجال كأنواع الفطر، لا ندري إن كانت سامة أم جيدة إلا بعد الأكل. فنحن – الرجال – نصوم ست عشرة ساعة غارقة بالحرارة والجفاف، وما إن يحلُّ الإفطار حتى نتخم من أول ست دقائق، لنتسابق بعدها في مجِّ السجائر. يبدو أن للأمر علاقة بالسياسة.

ففي العموم، إن الجوَّ هنا منذ أول يوم رمضاني وحتى اليوم الثلاثين في هذه القرية بالذات مشحون بالعصبية، مكهرب ويكاد ينفجر، فالجميع هنا ينظر إليك بنزق، وبعقدة فوق الجبين يمر دون أن يلقي التحية حتى.

فلهذا الشهر روحانيات جميلة، أنا أشعر بذلك؛ إذ تجد الجميع من حولك مُدبِرًا غير مُقبِل؛ إنها الحرب يا أخي، هي سبب كل ذلك.
ومع هذا الجو القشيب لهذا العام، تتفتح حيل ومكائد الجميع.

أما عائلتي فهي ليست استثناءً، فالأبواب كل حين تُطبَق بعصبية، الصحون في المغسلة تكاد تتكسر، الأكتاف تتخبط بالأكتاف، الكلُّ سكارى وما هم بسكارى.

فأنا – مثلًا – أستيقظ، أفتح الباب وأتمطَّى بإيمان، أعبُّ الهواء ملء معاطسي، وأردد في كسل: "أهلًا رمضان". أنا مطمئن لذلك، فالتحايل على رمضان بات سهلًا في هذا الجو اليابس.

ففي عائلتي تصرفات وأفعال إيمانية كثيرة، مثلًا أجدني أفتقد أخي في هذه الأيام، فقبل هذا الشهر كان كل دقيقتين ينط أمامي ليرتدي قميصي أو يستعير هاتفي للحديث مع إحداهنَّ، أما في هذه الأيام المباركة فشغله الشاغل هو الوضوء، وحين أسأله عن السبب يرد وقد نكَّس أحد حاجبيه ورفع الآخر بامتعاض: "بلل المضمضة لا يُفطر يا شيخ"، مع العلم أني لم أسأله عن بلل المضمضة، لكن يبدو أن لا جريمة كاملة؛ لهذا أنسحب بهدوء.

أيضًا ابن أخي لديه سياسات رمضانية خبيثة، أجده كل بضع دقائق يتسلل من المطبخ وهو يتمطَّق مسرعًا، ثم يغلق على نفسه باب غرفته، وأنا – بحشرية رمضانية – أدفع عيني لتنزلق من ثقب الباب لأرى كيف يفرك شفتيه في الجدار حتى تتشققا ليبدو للجميع أنهما تشققتا من الجوع والعطش، ثم يخرج وهو يتأرجح في مشهد تمثيلي احترافي. وحين يشك أني كشفت خديعته، يسألني بخبث كم بقي حتى تغرب الشمس.

هذا الولد يذكرني بطفولتي، ففي طفولتي لطالما كنت أنسى أني صائم، فآكل وأشرب، وحين يسألني أحدهم لِمَ أفطرت، أجيب بمكر: "أطعمني وسقاني الله"، لكنني أعلم في سري أن من أطعمني وسقاني هو الشيطان الذي في داخلي، لا غير.

ومن بين كل أولئك أعتقد أن عائلتي أكثر صبرًا من جارنا – يفضِّل عدم ذكر اسمه كي لا أكون مشروع إفطار جديد لديه –، هذا الرجل لديه نهفات رمضانية جميلة، فكل عام من هذا الشهر الكريم يحدث استنفار عام في منزله، بل في الحي كله، وذلك لإدمانه الشديد للسجائر.

فقد جاءني ظهر هذا اليوم وقد تورَّمت عيناه، جلسنا بمفردنا، وكمن يسرق شيئًا، سحب سيجارته من عبِّه وراح يمجُّ دخانها مجًّا، ثم قال قاطعًا الطريق أمام أي تأنيب أو كلمات توقع أن أقولها: "زوجتي لا تفهم أني لا أستطيع الصيام عن التدخين؛ لهذا كسرت بعض الصحون، وأهنتها أمام أولادي. يا ألله! ليتني لم أفعل.. لكنها لا تفهم، دائمًا تجبرني على فعل ذلك. هل لك في مساعدتي؟ لقد كتبت إليها رسالة وضعتها فوق الثلاجة؛ لعلنا نجد حلًّا لنكمل حياتنا كزوجين طبيعيين طوال هذا الشهر".

وما إن انتهى من حديثه حتى دفعني راجيًا أن أكون وسيطًا لإصلاح ذات بينهما؛ لهذا زرت زوجته ووجدتها تقرأ رسالته وقد كتب فيها:

زوجتي العزيزة،

أسلمي تسلمي يؤتيك الله أجرك مرتين، إما أن تمضي هذا الشهر الفضيل على خير، وإما أن هناك خطة (ب) تجبرك أن تأخذي أغراضك وتسافري إلى أمك ليخلص هذا الشهر الكريم، وكفى الله المؤمنين شر القتال. أعرف كم غلطت بحقك، وأن الإفطار غير

مقبول أمام الأولاد، لكن كل شخص على دينه وربه يعينه، وبالنسبة للتدخين في رمضان فهو غير مفطر؛ سألت الشيخ في ذلك وأخبرني أن التدخين لا يُعتبر سببًا للإفطار لكنه يفسد الصيام، وأن رب العالمين يقول في سورة البقرة / آية ١٨٤: "وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين"، وأنا رجل لا أطيقه. وخطيب الجامع الشيخ عامر - ما زال حيًّا فاسأليه - قال يوم الجمعة الماضية: "أي أحد لا طاقة له على الصيام، فليُطعم ٦٠ مسكيناً"، وأعتقد أنكِ زوجة مؤمنة وستفهمين كلامي.

وشكرًا

زوجك المحب

حين عدت إليه سألني بصبر:

- ها، ماذا قالت لك؟ هل وافقت على الصلح؟ أعرفها، إنها حنونة.
- تقول لك: "اذهب للعمل وقم بإطعام أطفالك الستة، ثم فكر كيف ستُطعم ستين مسكينًا يا كافر".

عودة الرجل البخاخ

ما أعرفه أن الطبيب الجيد يجب أن يكون لديه عينا نسر ويد امرأة، لا عينا بومة ويد لحَّام كهذا الطبيب الخشن الذي ما يميزه عمَّن هم سواه هو أسلوبه في علاج الناس، فطريقته في كشف العلل هي في أفضل حالاتها علُّ المريض، وهذا أفضل طب لمسته في هذه المنطقة الموبوءة في جنوب البلاد منذ وقعت الحرب.

كيف ذلك؟ لا أدري. ما أدريه حقًّا أن بنيتي الهزيلة تغري الأطباء على الدوام للانتفاع منها، فبسببها كسبت الكثير من الأصدقاء من هذا النوع. وهذا الطبيب هو أحدهم، فحبذا لو تتعرفون عليه بوعكة إنفلونزا، أو حتى لكع سيجارة صغير أسفل القدم، فترون كيف يشتري حياتكم بمرح.

فدائمًا – وبعد كل غارة أو اشتباك – يقتلنا هؤلاء الذين تعلموا كيف يحيون ويعتاشون من حياة الناس، أولئك الذين يسرقون على الدوام قوت يومهم من صحتنا، وفوق كل ذلك لا يلائمهم أقل من وصف (صاحب مهنة إنسانية).

لكن في المقابل، هناك حرَّاس كثر نذروا فراغهم وبطالتهم وتذمرهم لمحاربة التسيب والانحراف الذي خلقته الحرب؛ إذ يبدو أن الرجل البخاخ قد عاد من جديد.

فاليوم كان التذمر والاستياء باديًا على صلعة هذا الطبيب المتعرقة، حتى إنه لم يسمع تحيتي، وحين اقتربت أكثر لم يرغب في معاينتي. وحين سألته عن سبب غضبه، زفر الهواء من أنفه بغضب وأجابني:

- تسألني! ألم تقرأ ماذا كتبوا عني عديمو الأخلاق في فيسبوك؟

تنهد بصعوبة، سكت قليلًا، ثم انفجر شاكيًا:

- لا، ولم يكتفوا بذلك فقط، بل تطاولوا على حائط عيادتي، انظر بعينيك لترى ما أقل حياء أبناء بلدتك، أنا غريب عنكم، استحيوا يا أخي، احترموا حقوق الجيرة.. حلُّوا عني يا أخي..

يُطلق أبناء قريتي على هذا الطبيب اسم (الشامل في الطب)، وذلك بعد أن كتب فوق باب عيادته بخط عريض منمَّق (الطبيب (ن)، أخصائي في أمراض الأطفال، الأعصاب، الأورام السريرية، هضمية، جلدية، تناسلية، صدرية، نسائية، أمراض الحساسية والمناعة، أمراض الدم والأورام، أمراض القلب، أمراض الكلى، أمراض وجراحة العيون، أشعة الفم والوجه والفكين، الأذن والأنف والحنجرة، أمراض الغدد الصماء والسكري).

قرأت كل ذلك بتعب ثم قلت:

ـ أين الجديد بالأمر؟

ـ اقرأ هنا.. هنا يا أعمى.

وقد أشار بإصبعه أسفل اللافتة، حيث كتب أحد العابرين بضع كلمات: (ويحيي العظام وهي رميم، التوقيع "الرجل البخاخ").

ضحكت ثم أقفلت مواسيًا:

ـ عادي، الناجح يرمى بالحجارة دائمًا.

ـ إنهم يستهزئون بقدراتي يا رجل، يريدون تشويه سمعتي، لكنني أقسم بجمالي إن عرفته فسأقتله.

ـ لا كرامة لنبي في وطنه، هدئ من غضبك.

كرر ما قلته:

ـ "لا كرامة لنبي في وطنه". من قائلها؟

ـ لا أدري، لكني ربما قرأتها في مذكرات لهتلر.

ـ آه يا حبيبي يا هتلر! ليت الله يخلق ألف هتلر في هذه القرية حتى يحولوا سكانها إلى صابون، هذه القذارة لا تصلح لتكون صابونًا أصلًا.

في طريق عودتي إلى البيت، تجمهر أعضاء المجلس المحلي للبلدة أمام حائط المدرسة، وقد دأبوا مسرعين على مسح عبارة كتبها أحدهم سرًّا (المجلس المحلي سرق الطحين).

وفي طريق فرعي أسفل القرية، كُتبتْ عبارة أخرى على عَجَل (الفصيل الإسلامي حرامي، بدنا الجيش النظامي).

تحدث أعداء الرجل البخاخ عن وقاحته كثيرًا، أما الناس فكانوا نصراء عودته ونصراء وقاحته. فهو رجل جمع شجاعته في بخاخه، وعليه جمعت شجاعتي لنفسي وقلت في سري وسط كل هذه الفوضى: "أهلًا بعودة الرجل البخاخ".

دافع حب الكارثة

سأل "هنري دو مونترلان" يومًا الأب "مونييه": "ولكن لماذا يتزوج الرجال؟"، فأجابه: "بدافع حب الكارثة". لهذا الدافع، سأروي لك – عزيزي القارئ – قصة الشيخ "فنخور".

في يوم هادئ من أيام العام ٢٠١٤، في إحدى ضواحي بيروت التي تأوي آلاف السوريين المعدمين الفارين من الحرب، اندفع تيار عريض من شباك غرفة العمال، تكوَّرت الستائر الممتلئة بالهواء والأسمنت، فرسمت بطنَ حبلى في الشهر التاسع، أو هذا ما خيِّل لـ "فنخور"، العامل الأربعيني العانس، الجميل، والحساس جدًّا، وهو جالس يفكر كيف له أن يقنع إحداهن في بلدته المتعجرفة بالقبول به ليخلق عائلة وينجب أولادًا كسائر البشر.

وكواحد من آلاف السوريين (العايفين التنكة) في هذا البلد، كان فنخور يعمل كـ (معلم تنكة)، اصطف في ذاك الصباح مع طوابير العمال يحمل سطله ورفشه منتظرًا رزقه. عصب رأسه بشال فلسطيني، وأسند وجهه بجمع كفه وهو يفكر كيف يجد من تقبل

به زوجة. فجأة عبرت أمامه فتاة بشفتين رائقتين وساقين جميلتين يخفيهما بنطال جينز قصير بخصر ضيق. نظرت إليه ثم قالت بغنج:

- بونجور يا شيخ. (قهقهت هي ورفيقتها ثم مضت).

لم يتمالك فنخور فرحته، توازن على قائمتيه وهو يتلفت حوله ببسور، ثم صاح بوجه رفيقه:

- أسمعت؟ هل سمعت؟ أقسم بالله إنها تعرفني، من بين كل هؤلاء القذرين قالت اسمي، يا إلهي! أخيرًا!

قاطعه رفيقه بعينين شبه نائمتين:

- أي نعم يا عمي، خصتك بالسلام وحدك وقالت: "مرحبًا، شيخ فنخور"، أنا شاهد على ذلك.

ما هي ساعات حتى شاعت في صفوف العمال رواية أن "فنخور" ذا الأنف الواسع يقيم علاقة مع صبية حسناء. في اليوم الثاني قال أحدهم له:

- حين كنت تتركنا وتختفي لساعات، كنت تذهب لمواعدتها يا ملعون.

أتبعه آخر:

- آه يا ملعون.

وكمن لا يريد أن يتذكر أنه كان يتركهم لجمع علب البلاستيك من مكبات النفاية لبيعها، كان يكتفي أمامهم بالابتسام، كمن أعجبه ذاك الحلم.

في اليوم الثالث روى آخر:

- هناك من رأى فنخور على الساحل يقبِّل فتاة جميلة.

وفي اليوم الرابع تحادث شخصان آخران بصوتٍ عالٍ:

قال الأول:

- كيف لهذه الحلوة أن تقبِّل هذا الوجه المرعب؟! الحب أعمى، هيك قالوا في المسلسلات. يقولون إنها لا تدلِّعه إلا بقول: "حبيبي شيخ فنخور".

تساءل الثاني بغيرة:

- لِمَ لا يذهب ليمارس المشيخة ويتركنا بحالنا إذًا؟ إن سمعت البلدة بعلاقته تلك فستتقاتل النسوة على هذا البشع.

سمع "فنخور" حديثهما، ومثل حاكم عربي صدَّق بطولاته وشعاراته، حمل سراويله المدعوكة بالطين والأسمنت، ترك سطله الذي كان زوجته طوال تلك السنوات، وعاد إلى سوريا. وفي الجنوب، وفي قريته، قرر أن يمارس المشيخة.

باع أرضه، وبئر ماء ينضخ، واشترى بيتًا من شعر نصبه أمام منزله، ربط حصانًا واستأجر عاملًا يرعى خمسين خروفًا اقتناها للذبائح والمكارم. وهي مسلَّمات لأي رجل راغب في المشيخة التي يتبعها بعض وجهاء تلك البلدة بعد الحرب؛ حيث حلَّت المشيخة بدل القانون في إصلاح ذات البين وحل المنازعات والخصومات. ولهذا الأمر ذاع صيت الشيخ "فنخور" في البلدة؛ إذ لم يدع مناسبة

إلا وكان الرجل الأول بها (زواجًا، طلاقًا، مأتمًا، صراعًا عشائريًّا، قتل أحدهم، وغيرها من مشاكل هذا البلد التي لا تنتهي).

لكن لم يعلم هذا الشيخ أن ثمن المشيخة مكلف؛ إذ وجد نفسه بعد مدة قصيرة مفلسًا، بلا عمل، ويركض خلف الرزق وهو مشرقٌ، ولا يملك سوى أنف واسع لا تحبذه الفتيات، وقد حصل عليه بعد عملية جراحية جراء شظية عبرت من خلاله.

بقي على ذاك الحال، منبوذًا، وحيدًا، وبلا أمل. وفي لحظة يأس، تأقلم متأخرًا مع وجهة نظر "غاستون دو كافييه" بأن "الزواج أتعس طريقة للنوم في السرير". إلى أن أراحته من عذابه ذاك قذيفة مجهولة المصدر، لينتهي عذابه في قبر صغير وسط البلدة. مات "فنخور"، لكن لم يمت ذكره، فمنذ ذاك الحين والناس تقول عن كل شخص لم تقبل به فتاة وعانى الأمرَّين لنيل زوجة: "أعنس من فنخور".

دين قراطية

صحيح أن جثة إضافية قد لا تقرر مصير الحرب في بلادنا، لكن نفي هكذا رجل قد يُحدث فرقًا. ولو معي كل هذا المال الذي أستطيع به شراء كل ضمائر رجال الدين الذين خلقتهم هذه الحرب، لكان ذلك تجارة رابحة.

ومن هذا الالتزام غير المرضي عرفت الشيخ "أبو حذيفة"، رجل دين طيب وحنون، حبذا لو تعرفون كيف يأخذ الأمور ببراغماتية ومرح، إنه ثورة كيفما يتحرك، وهذا المكان بالنسبة له مثل ضميره، خريطة طبوغرافية تتغير كيفما كان.

عرفته كأحد أبناء القرية، ولن أكذب بالقول إنه وافد أجنبي حتى أزيح اللثام عن السوء المحلي، كان أحد أبرز قيادات الصف الأول لإحدى فصائل المعارضة المسلحة في جنوب بلادنا بين عامي ٢٠١٤ و٢٠١٥، وطوال وجوده في قريتي أصبح خطيبها الذي لا يخطئ. ورغم أنه ليس لديَّ سوى تلك اللحظات القصار التي جالسته فيها، فإن الاغتياب عندي هو ثمن الضيافة لهذه الفئة ممن يسمون بشرًا، فقد أدهشتني فتاويه الجاهزة لكل فعل يقوم به،

فهو رجل متوسط ومبروم مثل كيس تبن، يعرف متى يشلح شاربيه حين يرتدي لحيته.

فحين ينشر عظاته في المسجد في كل جمعة شامخًا برأسه، ومجادلًا بصوابية الحرب وببطولة كل من حمل السلاح، أُصَاب بالدونية والعجز، وأشعر وكأنه يقول لي ولجيلي: "أنتم الجيل الذي تم وضعه على الرف"، عندها لساني يتحول إلى قطعة لحم مشلولة، فأكاد أجزم أن المسيح إن عاد ينبغِ أن يكون معه حجر حتى يطحن هذه الرؤوس الشامخة بالنبيذ والتعَصب.

وهنا سأذكر له حادثة واحدة فقط، فحين جاء في ذاك اليوم كانت روحه رقيقة جدًّا، صعد على المنبر، جدل بيديه الهواء كعادة يحبذها رجال دين الجيل الرابع من حروب الشرق الأوسط في الوعظ، وراح يتحدث كيف أزاغت البدع هذا الدين، وكان يقصد في حديثه (مخاطر تعظيم القبور)؛ لأن ظاهرة وضع قطع الرخام على القبور التي شهدتها قريتي في سنوات الحرب قد "استثقلها باعتبارها من عظائم البدع"، أقفل خطبته بالهِداية للناس والدعاء لهم، مسح دموعه وحمل فأسه واتجه إلى مقبرة القرية، مستغلًّا سلطته ونفوذه في الفصيل العسكري الذي ينتمي إليه في "دين قراطية" واضحة.

وبما أن الحي أبقى من الميت، وأن المبذرين إخوان الشياطين، كان جيدًا له في مثل هذه الظروف أن يعيش حياته وبلا تبذير من خلال (إعادة تدوير القبور).

أعجبت جميع النسوة في القرية – بغيرة – بمطبخ زوجته المزين بقطع الرخام النفيسة. أما عن الرجال، فما زالوا يتحدثون عن استقباله – والدمع يكاد يخرج من مآقي عيونهم – حين أولَمَ لهم شيخهم بمناسبة دخوله بيته الجديد كما تجري العادة في القرية، استقبلهم وكل من زاره ما زال يتحدث إلى اليوم عن كرمه وعن واجهة بيته الملبَّسة بأحجار الرخام، حيث علا مدخل البيت قوس كبيرة مرخَّمة، وقد نقشت واجهته بعناية وبعبارة (هذا من فضل ربي).

وبعد سنين قلائل ووفق هذا النهج، جنى ثروة كبيرة، ولم يكن لينقصه في الحياة سوى الحب، فتفتحت عواطفه حين أعجبته مدرسة رقيقة وناعمة. ومنذ رآها وهو يعاني ذاك الإحساس المعروف جيدًا لمن هم بوضع العبودية، ذاك الإحساس الذي لا يعيه سوى من سقطوا في الحب، فشكله حين رمقها خلسة أثناء زيارته لابنه في الصف جعلت روحه ترقص.

وحين اتهمه فصيله بالاختلاس، ترك لحيته في مقر الفصيل، وعاف زوجته القديمة في تنكُّر للعِشرة، وحمل نفسه مع من أحبها، واتجه إلى (بلاد الكفار)، كما كان يصف بلاد شمال المتوسط في خطبه.

هو الآن في برلين، متفرغ بشكل كامل للأعمال الأدبية والتغريد المستمر على تويتر عمَّن خانوا ديننا وبلادنا والقضية.

فردة حذاء واحدة

لطالما كان يحتضنني حين يراني أذرف دموعي لعدم قدرته على شراء ما أرغب به، ثم يقول لي كعادته، وبطعم الأبوَّة العاجزة: "الرجال ما يبكون". كم كنت أحتقر تلك الكلمة! فكل الرجال هنا يتمنون لو يكون الفقر رجلًا، أما أنا فلا أريد أن أكون رجلًا.

لم أدرِ للوهلة الأولى في ذاك اليوم العصيب لماذا أجهش بالبكاء، عندما رآني مستلقيًا على سرير أسود معصوب الرأس وبعينين شبه مفتوحتين، وكأنه يقول لي: "ليس أمام الأبوة رجولة، وإنه أمام جراحي ليس برجل".

مسح دمعته المالحة فوق سريري بكفيه الحلوتين والمتسختين بالغبار. أما أنا، وبعين مغمضة وأخرى نصف مفتوحة، فجاهدت لأرى لِمَ هذا الضجيج في هذا المكان الغريب والمزدحم.

ففي البعيد امرأة تنوح وتلطم على وجهها، وأب آخر يحمل كومة لحم بين ذراعيه، يركض ويصرخ: "يا مسعف، يا مضمد، كرمى لله عالجوه لولدي". وفي الزاوية رجل مسن أسند ظهره إلى

الحائط واحتوى بكفيه رأسه الصغير المضمَّد بالشاش، وفي عينيه عبرات حزينة لجثة ممددة قربه.

وجوه الممرضين والأطباء البائسة بذهولها البادي بالحيرة والعجز، ومرايلهم البيضاء الملطخة بالدماء تخبر الجميع عن هول ما حدث، يذرعون المكان جيئة وذهابًا، أحدهم يتطاول بقامته على أحد الأسرَّة يصرخ بصوتٍ عالٍ: "زمرة دم A إيجابي.. زمرة دم A إيجابي.. نحتاج إلى متبرع يا شباب"، ثم يقاطعه آخر: "زمرة دم O سلبي.. O سلبي على وجه السرعة يا شباب". مسح أبي باقي دموعه التي ظننت أنها نفدت، ثم صرخ مشيرًا بيده للممرض: "أنا زمرتي A إيجابي، أخي الممرض"، وقبل أن يذهب طبع على جبيني بشفتيه الناشفتين قبلة جميلة، شمَّر عن وريده وهرول إلى غرفة الطبيب.

بقربي وضعوا شابًّا يبدو في الثلاثين، شقَّت قذيفة بطنه حتى لطخت لحيته بالدماء، أدار وجهه إليَّ حين أخذ الممرضون يطببون له جرحه، وبين الحين والآخر كان يعضُّ على شفتيه ويئن من الوجع، ينادي زميلًا له يمسك له السيروم: "اذهب واعرف ما حل بعائلتي".

الكل هناك يحاول أن يعرف أخبار عائلته بعد سقوط قذيفة في حارتنا، فقد اختلط اللحم ببقايا البيوت، وما عدنا نستطيع أن نميز أحدًا، ومن نجا من الشظايا ها هو يئن في هذا القبو، أو ما يسميه الجميع باسم (المشفى الميداني).

في الخارج أخذ صوت الرصاص يعلو، وتقترب القذائف العمياء والمبصرة من المكان، تزدحم الأنفاس وتصمت لوهلة، ولا يرتفع سوى صوت الدعاء وبكاء الصغار. أنا لم أبكِ، ربما لأن الرجال لا يبكون، وربما لأني مذهول من هول ما يجري. أبي، ووسط هذا الازدحام، يحاول أن يشق طريقه إلى سريري، يجلس بقربي بحيل فاتر وبوجه بهتت ملامحه.

في تلك الأثناء أخبرته أني أشعر بحرارة تحت ساقيَّ، كشف الغطاء عن ساقي المهشمة، ليعلو صوته المرتجف نحو الطبيب. بعدها بدقائق أغمي عليَّ، لأستيقظ بعد يوم كامل مستلقيًا على إسفنجة للهلال الأحمر في خيمة على أطراف البلدة.

كان ذلك أسوأ واقع عشته في حياتي، لأعيش بعدها مع أطول كابوس في عمري؛ عمتي بقربي تنظر إليَّ بعينيها المتورمتين من الدمع، أبي هو الآخر يمسح جبيني بوجع، ثم يقول لي بصوت مهزوز: "نشكر الله أنك ما زلت حيًّا، فنصف السوريين ماتوا، والنصف الآخر بلا أطراف، هي أيام وستعتاد – مثلهم – العيش مع فردة حذاء واحدة".

تم بحمد الله

فهرس

حكم الله	٥
ذاهب إلى الجبهة	١٥
الناصحون	٢١
مذكرات نباتي	٢٩
دخل الله	٤٠
السيد "بلا مؤاخذة"	٤٦
الفاجعة كبيرة	٤٩
الحرب أسقطت شاربَي جدي	٥٣
يومٌ آخر ممل..	٥٦
سبب مقنع للجوء	٦٠
لا تثق بالأرصاد الجوية	٦٣
ديالكتيك حوراني	٦٨
حديث ما بعد ليلة عاصفة	٧٤

صديقي هاري بوتر	٧٩
كلُّه من ترامب	٨٣
رحلة	٩١
زكزكة	٩٧
الزوج طيب القلب	١٠١
كيف يحتال الرجال على رمضان؟	١٠٥
عودة الرجل البخاخ	١٠٩
دافع حب الكارثة	١١٣
دين قراطية	١١٧
فردة حذاء واحدة	١٢٠

كاريزما
للنشر والتوزيع